روايات مصرية للجيب
16
رجل المستحيل
د. نبيل فاروق
سلسلة الأعداد الخاصة
البداية
Looloo
www.dvd4arab.com

رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى ، يرمز إليه بالرمز (ن ـ 1) .. حرف (النون) ، يعنى أنه فئة نادرة ، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه ؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة ، من المسدس إلى قاذفة القنابل .. وكل فنون القتال ، من المصارعة وحتى التايكوندو .. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة ، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج) ، وقيادة السيارات والطائرات ، وحتى الغواصات ، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة .

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات ..

ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل ، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات الحربية ، لقب (رجل المستحيل) .

د. نبيل فاروق

1 ـ الفكرة ..

خيّم صمت تام ، على تلك البقعة من (باريس) ، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وأطلّ القمر بقرصه الفضى ، من خلف برج (إيفل) الشهير ، ليلقى أمامه ظلاً هائلاً ، امتزج بظل آخر ، يتحرك فى خفة بين مبنيين كبيرين ، ليلتقى بآخر ، فى زقاق ضيق ، ويناوله حقيبة صغيرة ، وهو يقول فى عصبية هامسة :

ـ هذه هى كل الأوراق .. أين المبلغ الذى اتفقنا عليه ؟

أجابه الآخر ، فى صرامة خشنة :

ـ سأراجعها أولاً .

تلفّت الأول حوله فى عصبية ، قبل أن يهمس :

ـ أسرع إذن .

وبينما يراجع الثانى الأوراق ، ظهرت بضعة ظلال أخرى ، تتحرك فى نشاط وسرعة ، وبمنتهى الخفة والحذر ؛ لتحيط بالرجلين على نحو دقيق مدروس ، قبل أن يهمس أحدهما :

ـ سنهاجم الآن .

مع قوله ، تحرّكت الظلال كلهـا ، مندفعة نحو الرجلين ، من ثلاثة اتجاهات مختلفة ، و ...

« خيانة !.. »

هتف الرجل الثـانى بالكلمة فى غضب ، واستل مسدسًا ضخمًا من حزامه ، وصوّبه نحو الأوّل ، الذى اتسعت عينـاه فى رعب هائل ، وتراجع هاتفًا :

ـ لا .. لست ...

ولكن الثانى ضغط الزناد ، فانطلقت من كاتم الصوت رصاصـة صامتة ، اخترقت منتصف جبهة الأوّل ، الـذى سقط جثة هامدة كالحجر ، فى نفس اللحظة التى هتف فيها أحد المنقضين :

ـ استسلم وإلا ...

قبل أن يتم عبارته ، استدار إليه حامل المسدس ، وأطلق نحوه عدة رصاصات ، ثم اندفع محـاولاً الفـرار بالحقيبة التى أحضرها الأوّل ، ولكن أحد المنقضين أطلق نحوه رصاصته ، محاولاً تعطيله .. ولكن الرجل وثب وثبة مدهشة ، وتجاوز حافة الرصيـف ، وحـاول أن يختفى فى زقاق آخر ، فهتف منقض آخر :

ـ لو فر سنخسر كل شىء ..

وهنا ، صوّب الجميع مسدسـاتهم نحو الرجل الثـانى ، وعلى الرغم من كراهيتهم لإنهاء العملية على هذا النحـو ، لم يجدوا أمامهم سوى إطلاق النار ..

نحو الهدف مباشرة ..

كانت هناك حتمية لمنعه من الفرار بالحقيبة ، مهما كان الثمن ..

وعلى الرغم من وثبته الماهرة ، حصدته رصاصاتهم حصدًا ، وأصابته فى مقتـل ، فهـوى عند مدخل الزُقاق ، ويده ما زالـت تمسك بالحقيبة ..

وبقفزة واحدة ، بلغه أحدهم ، وانحنى ينتزع الحقيبة من يده ، فى نفس اللحظة التى ظهرت فيها سيارة شرطة فرنسـية ، لاحظ أحد ركابها ما يحدث ، فهتف :

ـ ماذا تفعلون هناك ؟!

وفى لحظة واحدة ، تفرّق الرجال كما انقضوا ، وانطلقوا فى اتجاهات مختلفة ، وذابوا وسط الظلام والظـلال ، فـاندفع رجـال دورية الشرطة خلفهم ، محاولين اقتناص أحدهم ..

ولكن الرجال اختفوا تمامًا فى المنطقة المحيطة ، ولـم يتركوا خلفهم سوى جثتين ..

جثتين من جنسيتين مختلفتين تماماً ..

« خطأ .. ما حدث خطأ » ..

هتف العميد (صبرى) بالعبارة فى غضب ، وهو يدق سطح مكتبه بقبضته ، فالتفت إليه زميله (حسن) ، وهو يقول فى قلق :

ـ ما الخطأ بالضبط يا (صبرى) ؟!.. لقد استعدنا الوثائق السرية ، ولم نخسر سوى ذلك الخائن ، وأمكننا كلنا العودة إلى (مصر) فى أمان .

قال (صبرى) فى مرارة :

ـ لم يكن ينبغى أن يتم الأمر على هذا النحو ... صحيح أننا استعدنا الوثائق ، ولكننا لم نعرف من وراء هذا الفعل بالضبط .. لقد اضطررنا إلى قتل جاسوس العدو ، ولقى الخائن مصرعه أثناء العملية ، وكل هذا لأننا كنا أكثر مما ينبغى .

غمغم (حسن) :

ـ كنا ثلاثة أفراد فحسب .

لوّح (صبرى) بذراعه ، هاتفاً :

ـ ثلاثة ؛ أفراد لمواجهة رجلين .. حسبة فاشلة وخاسرة يا رجل .. كنا ثلاثة لأن (عاطف) لا يجيد الفرنسية ، وأنت لا تعدو بسرعة مناسبة ، وأنا الوحيد الذى يمكنه معرفة جواسيس الأعداء ..

هزّ (حسن) كتفيه ، قائلاً :

ـ لا تنس أننا جهاز مخابرات وليد ، ومهاراتنا لم تكتمل بعد .

هتف (صبرى) :

ـ وهذا أكبر خطأ ..

كان كلاهما من الرعيل الأول لرجال المخابرات ، الذين أسسوا المخابرات العامة ، وكلاهما يسعيان لاكتساب كل المهارات والخبرات اللازمة لمواجهة أجهزة المخابرات العدوة ، التى تتحرك بمنتهى الشراسة والعنف ؛ لوأد رجال الثورة ، الذين أشعلوا فتيل حماس الحرية ، فى منطقة الشرق الأوسط كلها ..

وفى محاولة لتهدئة الأمور ، غمغم (حسن) :

ـ لست أدرى أين يكمن الخطأ بالضبط !

أجابه (صبرى) فى حزم :

ـ الخطأ فى أن كلاً منا يلم بمهارتين على الأكثر ، ويعتمد على الآخرين فى باقى المهارات والخبرات .

قال (حسن) فى حيرة :

ـ هذا أمر طبيعى ؛ فاكتساب مهارة واحدة يحتاج إلى زمن طويل للغاية ، وليس من الممكن أن يكتسب شخص فى عمرنا أكثر من مهارتين أو ثلاثاً ، لو كان موهوباً .

أشار (صبرى) بسبابته ، قائلاً :

ـ هذا لأننا نبدأ تدريباتنا فى سن متأخرة .

ضحك (حسن) فى توتر ، وهو يقول :

ـ سن متأخرة ؟!.. إننا نبدأ تدريباتنا فور التحاقنا بالكلية الحربية يا رجل .. من يمكنه أن يفعل أفضل من هذا ؟!

بدا (صبرى) شاردًا ، وهو يغمغم :

ـ ولكن هذا لا يكفى .. من الواضح أنه لا يكفى .

تطلّع إليه (حسن) بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يميل نحوه ، متسائلاً :

ـ (صبرى) .. فيم تفكّر بالضبط ؟!

بدا (صبرى) أكثر شرودًا ، وهو يجيب :

ـ فى أن الأمر يحتاج إلى تطوير .. تطوير كبير ..

ولم يناقشه (حسن) فيما يدور فى ذهنه ، وإن أصبح واثقًا من أن زميله يبحث عن فكرة ما ..

فكرة مجنونة ..

تمامًا ..

* * *

« وجدتُها !.. »

هتف (صبرى) بالعبارة فى حماس ، وهو يندفع داخل مكتب (حسن) ، الذى رفع عينيه إليه فى هدوء لا يتناسب مع الموقف ، وسأله :

ـ ما التى وجدتَها يا (أرشميدس)(*) زمانك ؟!

أجابه (صبرى) بنفس الحماس :

ـ الفكرة التى كنت أبحث عنها .

تراجع (حسن) فى مقعده ، متسائلاً ، فى شىء من الحذر :

ـ أى فكرة ؟!

جذب (صبرى) مقعدًا ، وجلس إلى جواره ، قائلاً فى انفعال واضح جارف :

ـ فكرة إنتاج رجل المخابرات المثالى !

لم يسترجع عقل (حسن) الأمر على الفور ؛ لذا فقد قال ، وقد تضاعف حذره :

(*) أرشميدس (287 ـ 212 ق.م) : عالم رياضيات إغريقى ومخترع ، قام ببعض الكشوف العلمية الأساسية ، ويلقّب بـ (أبى العلم التجريبى) ، ويعود إليه كشف قانون الطفو الأساسى ، وارتبط هذا بعدوه فى شوارع أثينا ، وهو يهتف : « وجدتها .. وجدتها » .. حتى ارتبطت الكلمة به تاريخيًا .

- لو أن لديك فكرة تتناسب مع ما طالب به المدير الجديد ، فيمكنك أن ...

قاطعه (صبرى) بحماسة :

- المدير الجديد طلب منا البحث عن وسائل لتطوير أداء الجهاز ، ولكن فكرتى تعتمد على تطوير رجل المخابرات نفسه .

هزَّ (حسن) كتفيه ، وقال :

- يبدو لى الأمران متقارِبَيْن .

هتف (صبرى) :

- كلا .. لأن فكرتى لا يصلح تنفيذها على أى رجل مخابرات ، ممن يعملون فى الجهاز ، أو حتى ممن تم ترشيحهم للعمل فيه .

تضاعفت دهشة (حسن) ، وهو يقول :

- ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

أجابه فى حماس :

- قل لى أنت أولاً ما العقبة التى تحدثنا عنها ، عندما طرحت عليك فكرة رجل المخابرات ، الذى يجيد كل المهارات الممكنة ؟

أجابه (حسن) ، فور انتهاء كلماته :

- أنه لن يجد الوقت الكافى لبلوغ ما تأمَّله ، وإذا ما نجح ، واكتسب كل ما تحلم به من مهارات ، سيكون عمره قد بلغ مرحلة يعجز فيها جسده عن إطلاق قدراته ، مع تقدمه فى العمر .. باختصار ، لا يمكنك - منطقيًا - أن توازن بين الخبرة والقوة ، مهما فعلت .

أشار (صبرى) بسبَّابته ، قائلاً :

- إلا لو بدأنا تدريباته فى سن مبكرة .

هزَّ (حسن) رأسه ، قائلاً :

- أى سن مبكرة ؟!.. التدريبات التى تتحدث عنها ، والخبرات التى تنشدها ، بالمستويات المطلوبة ، لا يمكن أن يكتسبها شخص مثابر ، إلا بعد عقدين من الزمان ، على الأقل ، وعبر تدريبات شاقة لا تنقطع ، فلو افترضنا حتى أنه بدأ تدريباته هذه فى العشرينات من عمره ، فسيبلغ الأربعين ، قبل أن يمكنه الاستفادة منها .. وفى عالمنا ، يبدو لى هذا سن تقاعد ، لا سن انطلاق .

بدت ابتسامة (صبرى) غامضة ، وهو يقول :

- وماذا لو بدأ فى العاشرة ؟!

غمغم (حسن) ، مندهشًا ومستنكرًا :

- العاشرة ؟!.. ألا تعتقد أنّ ...

قاطعه (صبرى) ، فى حماس متزايد :

- وماذا عن الخامسة ؟!

اتسعت عينا (حسن) عن آخرهما ، قبل أن يهز رأسه فى عنف ، قائلاً :

- (صبرى) .. لو أن لديك وقتًا للمزاح ، فوقتى اليوم لا يسمح به ...

قاطعه (صبرى) فى حسم :

- الواقع أننى أجد أن الثالثة سن مناسبة أكثر .

حدّق (حسن) فيه باستنكار شديد ، وهتف :

- (صبرى) !..

أضاف (صبرى) فى سرعة ، قبل أن يمنحه فرصة التعليق :

- ولنتفادى الجدل ، فأنا جاد تمامًا .

هتف (حسن) فى حدة :

- الجدل ؟!.. ومن سيجادل مجنونًا مثلك ؟! إنك تتحدث عن إعداد طفل مخابرات ، لا رجل مخابرات .

أجابه (صبرى) :

- على العكس تمامًا .. إننى أتكلم عن إعداد رجل مخابرات فائق ، لا يشق له غبار ، فى عالمنا شديد التعقيد هذا ، ولقد درست الأمر جيدًا ، ووجدت أن إعداده لابد أن يبدأ مع سنوات عمره الأولى .

اتسعت عينا (حسن) عن آخرهما ، وهو يغمغم :

- رباه !.. إنك جاد بالفعل .

ثم اندفع يستدرك فى عصبية :

- ولكنك لم تفكر جيدًا ، كيف يمكنك أن تدرّب طفلاً ، تعلّم السير بالكاد ، ولم ينطق جملة متكاملة بعد ، على مهارات ينبغى أن يكتسبها رجل مخابرات .

أجابه فى سرعة وحماس :

- باللعب .

تراجع مصعوقًا ، وهو يحدّق فيه ، فتابع بنفس الحماس :

- مجموعة من الألعاب ، يتم وضعها وترتيبها بعناية بالغة ، بحيث تبدو ظاهريًا ممتعة للطفل ، ولكنها تكسبه مهارات أساسية ، فى سنوات عمره الأولى ، التى يكون فيها أشبه بالإسفنج الجاف ، الذى يمتص فى شراهة كل ما يلقى عليه .. والأطفال يكتسبون المهارات

فى سرعة ويسر ، وخاصة مع برنامج تدريبى علمى ومتدرِّج ، بحيث تتطوَّر المهارات والخبرات ، مع كل عام يمضى .

حدَّق (حسن) فيه ذاهلاً ، وهو يتمتم :

- وهل يمكنك أن تدربه على القتال ، والتحدُّث بلغات مختلفة ، و ...

قاطعه (صبرى) متحمسًا :

- والرماية ، وركوب الخيل ، وقيادة المركبات ... إننى أتحدَّث عن سنوات عديدة يا رجل ، وسيدهشك كم يمكن أن يكتسب الجسد البشرى ، إذا ما تم إعداده على نحو جيد مدروس .

غمغم (حسن) ، وهو يفكر فى عمق :

- أنا أعلم هذا .

قال (صبرى) :

- أراهنك أنه سيصبح تحفة فريدة ، قبل أن يبلغ العاشرة من عمره .

انعقد حاجبا (حسن) ، وهو يقول :

- ولكن فكرتك تحوى ثغرة يا (صبرى) .. ثُغرة كبيرة جدًا .

واستمع إليه (صبرى) ..

وكان على حق ..

الفكرة تحوى ثغرة ...

هائلة .

* * *

تراجع مدير المخابرات العامة فى مقعده فى بطء ، وهو يتطلَّع إلى (صبرى) ، قبل أن يقول :

- لقد طالعت تقريرك مرتين يا (صبرى) ، ولكن الفكرة تبدو لى مبالغة بعض الشىء ، وإنْ أعترف بأنها مبتكرة .

هزَّ (صبرى) رأسه ، قائلاً :

- ليست مبتكرة تمامًا ، فقد اقتبستها من المخابرات السوفيتية ، أو بمعنى أصح ، من الثورة البلشفية(*) .. فعند اندلاعها ، تم اعتقال الآلاف من معارضيها ، وكوسيلة انتقامية منهم ، حشدوا أطفالهم فى مدارس خاصة ، أطلقوا عليها اسم مدارس (الكى . جى . بى) ،

(*) الثورة البلشفية : (1917م) / ثورة قام بها الفلاحون والعمال ، فى روسيا البيضاء ، بعد فترة طويلة من حكم الإمبراطور (إيفان) ، من عائلة (رومانوف) ، والذى كان طاغية جبارًا ، ولقد تزعم الثورة (لينين) ، مستندًا إلى الماركسية ، التى يمكن اختصارها فى مبدئها (كلٌّ حسب طاقته ، ولكل حسب حاجته) .

مهمتها أن تنشئهم على نفس المبادئ ، التى يعارضها ذووهم ، ولقد أسفر هذا عن جيل شديد الولاء للمبادئ الشيوعية ؛ لأنه تعلمها منذ نعومة أظافره(*) .

قال المدير مشيرًا بيده :

ـ الأمران يبدوان لى مختلفين تمامًا .

قال (صبرى) فى حماس :

ـ كلاً فى الواقع يا سيدى ، فكل ما فعلته هو أن طورت الفكرة ، فى إطار مختلف ، فبدلاً من تلقين المبادئ الشيوعية للصغار ، سندربهم على أعمال المخابرات ، وسنصنع منهم أعظم رجال مخابرات فى المستقبل .

قال المدير فى حزم :

ـ ولكن هذا يتعارض مع طفولتهم ، ويحرمهم من أجمل سنوات عمرهم .

هزّ (صبرى) رأسه مرة أخرى فى قوة ، وهو يقول :

ـ لن يشعروا بأى حرمان يا سيادة المدير ، بل على العكس تمامًا ، سيبدو لهم كل شىء أشبه بلعبة طريفة ، ومسابقة ممتعة ، وسيكتسبون المهارات المختلفة ، وكل الخبرات المطلوبة ، فى سنوات نموهم الأولى .

(*) واقعة حقيقية .

قال المدير بنفس الحزم :

ـ وسيُحرَمون من الاختيار أيضًا ، بعد أن حددنا لهم مستقبلهم ، منذ نعومة أظافرهم .

هتف (صبرى) :

ـ سيصبحون أعظم رجال مخابرات .

هتف المدير بدوره :

ـ على الرغم منهم .

زفر (صبرى) فى توتر ، فأضاف المدير فى صرامة :

ـ ثم من ذا الذى يمنحك ابنه ، لتصنع منه هذا ؟!.. أى أب هذا ، الذى يمكن أن ينشئ ابنه ، من أجل عالم لا يهدأ أو ينام أبدًا ؟!

استعاد (صبرى) حماسته ، وهو يجيب :

ـ لا أحد .. ولن نطالب أحدًا بهذا .. سنستعين بأطفال دُور اليتامى .

ارتفع حاجبا المدير ، فى دهشة مستنكرة ، قبل أن يقول :

ـ لا يعنى كونهم أيتامًا أنه لا يوجد من يرعاهم ، أو يهتم بشأنهم .. هناك مؤسسات عديدة ستعارض هذا بشدة .

ثم تراجع فى مقعده ، وأضاف بمنتهى الحزم :

ـ لقد كان (حسن) على حق .. هناك ثغرة ضخمة فى نظريتك .

قال (صبرى) فى توتر :

ـ ولكن النتائج ...

قاطعه المدير فى صرامة :

ـ بلوغ الغايات لا يبرّر سوء الوسائل يا صبرى .. لو أقررنا هذا المبدأ ستفْسد الدنيا كلها ، بحجة الإصلاح ، ولا تنس أن الطريق إلى الجحيم ، مفروش دومًا بالنوايا الطيبة .

ارتسم يأس عصبى على وجه (صبرى) ، وهو يتراجع ، مغمغمًا :

ـ أيعنى هذا أن ...

قاطعه المدير مرة أخرى فى صرامة :

ـ نعم .. الفكرة مرفوضة تمامًا .

نطقها فى حزم وصرامة ، فتفجّرت فى أعماق صبرى مرارة .. مرارة بلا حدود ..

* * *

« كنت أعلم هذا .. »

نطق (حسن) العبارة فى أسى ، وهو يربّت على كتف (صبرى) ، الذى جلس خلف مكتبه واجمًا ، فتابع (حسن) :

ـ لم يكن من الممكن أبدًا أن يوافقوا على فكرة كهذه .. ليس لأنها فكرة سيئة ، ولكن لأنها تسبق زماننا بكثير يا رجل .. ألا تعرف الحكمة التى تقول : « ويل لمن سبق عقله زمانه ! »

أدار (صبرى) عينيه إليه فى صمت ، استغرق نصف دقيقة ، قبل أن يقول فى خفوت :

ـ أظنهم خسروا فرصة نادرة .

ربّت (حسن) على كتفه مرة أخرى ، وقال :

ـ أنا واثق من هذا .. ولكنهم لن يدركوا أبدًا ما فقدوه .

قال (صبرى) فى حزم :

ـ سيدركونه ، لو قدمنا لهم نموذجًا واحدًا .

هزّ (حسن) رأسه ، قائلاً :

ـ ومن أين لنا بهذا ؟!.. هل تتصوّر أن أى مخلوق يمكن أن يضع ابنه ، فى تجربة كهذه .

هتف (صبرى) فى انفعال :

ـ ألا تدرك ما سيصبح عليه ذلك الابن ؟!.. أراهنك أنه سيصبح حالة فريدة فى عالم المخابرات .. وربما فى عالم الأرقام القياسية أيضًا .

قال (حسن) :

ـ ربما ، ولكن هذا حتمًا سيحرمه الكثير .. والكثير جدًا ..

وأى أب سيفكر فى هذا ، وسيفضّل أن يحظى ابنه بحياة عادية .

ثم مال نحوه ، وواجهه مباشرة ، وهو يكمل :

ـ أنت شخصيًا ، حاول أن تسأل نفسك .. هل يمكن أن تعرّض ابنك لهذا ؟!

اتسعت عينا (صبرى) ، وهو يحدّق فيه ، فتابع فى حزم :

ـ هل رأيت كيف أفزعتك الفكرة ؟!

تألّقت عينا (صبرى) ، على نحو عجيب ، وهو يقول :

ـ وماذا لو أنها لم تفزعنى ؟!

هتف (حسن) :

ـ فى هذه الحالة ...

استوقفه (صبرى) بإشارة صارمة من يده ، قبل أن يكمل عبارته ، وغمغم فى انفعال عجيب :

ـ كفى ... لا أريد أن أسمع كلمة أخرى .

ثم تراجع فى مقعده ، وشرد ببصره على نحو عجيب ، وهو يضيف :

ـ أريد أن أفكّر .

كان لدى (حسن) الكثير ليقوله ، إلا أنه احترم موقفه ، ولاذ بالصمت ، وتركه يفكّر ..

ويفكّر ..

ويفكّر ..

بمنتهى العمق ..

* * *

« أبى .. لماذا تحدّق فينا هكذا ؟!.. »

ألقى (أحمد) الصغير السؤال في براءة ، وهو يندس بين ساقي والده (صبري) ، الذي ربّت على رأسه في حنان ، وهو يقول :

- لا شيء يا صغيري .. إنها فكرة تجول في رأسي ، بشأنك أنت وشقيقك الأصغر (أدهم) .

هتف (أحمد) في مرح :

- هل سنذهب لزيارة جدنا ؟!

حاول (صبري) أن يبتسم ، وهو يغمغم :

- ليس اليوم يا صغيري .. ليس اليوم بالتأكيد .

نطقها ، وهو يتابع لهو صغيره (أدهم) ، الذي تجاوز الثالثة من عمره بالكاد ، وانهمك في محاولة تفكيك لعبة ذات زُنْبُرك ، في أحد أركان الحجرة ..

وفي تلقائية بريئة ، تسلّق (أحمد) ساقيه ، وجلس على ركبتيه ، وتساءل :

- أين سنذهب إذن ؟!

ضمه (صبري) إليه ، وهو يواصل التفكير ، في ذلك الأمر الجنوني ، الذي سيطر على كيانه كله ، وراح يراقب (أدهم) ، الذي حوّل اللعبة إلى قطع صغيرة ، ثم راح يحاول إعادة تركيبها ، في اهتمام بالغ ، لا يتناسب مع سنوات عمره الثلاث ..

ثم فجأة ، اتخذ (صبري) قراره ..

حزم مفاجئ سرى في كيانه ، وجعله يسأل صغيره (أحمد) في اهتمام بالغ :

- ما رأيك في لعبة جديدة ؟!

صفق (أحمد) بكفيه في جذل ، وهو يقول :

- لعبة جديدة ؟!.. هل ستحضر لي لعبة جديدة ؟!

أجابه في لهفة :

- لن نحضرها ، وإنما سنمارسها معًا .

ثم رفع عينيه إلى (أدهم) ، وقال في حماس :

- (أدهم) .. تعال يا صغيري .. ستشاركني وأخاك لعبة جديدة .

نهض (أدهم) الصغير في حماسة ، وأسرع إلى والده في فرح ، فضمه إليه في حنان ، وهو يقول :

ـ سنبدأ معًا مجموعة من الألعاب الجديدة الممتعة .. ألعاب ستغير مجرى حياتكما .. إلى الأبد .

وكانت هذه هي البداية ..

الفعلية .

* * *

2ـ نمـــو ..

بدا (حسن) شديد العصبية والتوتر ، على غير المألوف ، وهو يقتحم مكتب (صبرى) ، قائلاً في حدة :

ـ ما الذي فعلته بالضبط ؟!

رفع (صبرى) عينيه إليه في هدوء ، وهو يتساءل :

ـ قل لي أنت ما الذي تتصوّر أنني فعلته ؟

جذب (حسن) مقعدًا بحركة حادة ، ليجلس أمام مكتبه ، قائلاً :

ـ ما الذي فعلته بولديك ؟!

تراجع (صبرى) في مقعده في بطء ، متسائلاً :

ـ وما هو ؟!.. إنني أفعل كل ما يفعله أي أب لأبنائه .. أربيهم ، وأرعاهم ، وأحرص على أن يتفوقوا في دراستهم ، و ...

قاطعه (حسن) محتدًا :

ـ وماذا عن تلك الألعاب ؟!

سأله (صبرى) بنفس الهدوء :

ـ ماذا عنها ؟

مال (حسن) نحوه ، حتى كاد وجهاهما يلتصقان ، وهو يقول في توتر :

- (صبرى) .. إنك تجرى عليهما تجربتك .. أليس كذلك ؟!

صمت (صبرى) بضع لحظات ، وهو يتطلّع إليه مباشرة ، قبل أن يقول في بطء حذر :

- وماذا لو افترضنا أننى أفعل ؟

تراجع (حسن) بحركة حادة ، ولوّح بيده كلها في الهواء ، وهو يقول :

- أنا واثق من أنك تفعل .. لقد أتيا أمس إلى عيد ميلاد ابنى ، وكانت المهارات التى اكتسباها واضحة .. حتى (أدهم) ، الذى لم يتجاوز السادسة ، كان يتصرّف في رصانة ، كما لو أنه رجل صغير .

سأله (صبرى) ، في حذر أكثر :

- ولماذا يضايقك هذا ؟

أجابه في عصبية :

- لقد دمرت طفولتهما .. أفسدت عليهما أجمل سنوات عمرهما .. كل ما يشغل ذهنك هو تجربتك ، والنتائج التى تتوقعها منها .

أجابه (صبرى) في حزم :

- لو تحقّقت النتائج التى أنشدها ، سيتغيّر وجه عالم المخابرات إلى الأبد .

هتف (حسن) :

- وسيكون ولداك هما ضحية هذا .

رمقه (صبرى) بنظرة صامتة طويلة ، ثم نهض من خلف مكتبه ، واتجه نحو النافذة ، يتطلّع عبرها بعض الوقت ، قبل أن يقول ، في لهجة امتزج فيها حزمه بلوعته :

- هل تعرف ما الذى اكتسبه كل منهما ، في السنوات الثلاث الماضية ؟!.. (أحمد) تفوّق في دراسته على نحو ملحوظ ، ويمكنه الآن أن يجرى تجارب كيميائية ، بمهارة تقارب من يفوقونه عمرًا بعشر سنوات على الأقل ، وتفوّق في دراسته ، على كل أقرانه .. و(أدهم) .. (أدهم) لم يبلغ السادسة بعد ، ولكنه يتحدّث الإنجليزية ، وبعض الفرنسية ، وسرعة استجابته ...

قاطعه (حسن) في حدة :

- وماذا عن طفولتهما ؟!.. هل تمتعا بها ؟!.. هل أمكنهما أن يركبا أرجوحة ، أو يلهوا ببالون ، أو ...

جاء دور (صبرى) ليقاطعه ، وهو يقول :

ـ ربما لم يفعلا هذا ، ولكننى منحتهما أنواعًا أخرى من الألعاب ، ووسائل اللهو ...

قال (حسن) :

ـ وهذا ما يقلقنى .. إنهما لا يفكران أو يلهوان ، مثل أى طفل فى عمرهما .. حتى ألعابهما تختلف .. ابنك (أدهم) انشغل بتقليد أسلوب كل الحاضرين وأصواتهم ، بدلاً من أن يلهو مع مَن فى مثل سنه .

تنهَّد (صبرى) ، مغمغمًا :

ـ إنه موهوب فى هذا المضمار .

صاح (حسن) :

ـ موهوب ؟!.. إنه طفل فقد براءته .. ما الذى تتوقعه منه ، بعد عشرة أعوام من الآن .. هل سيتحوَّل إلى محتال عالمى ؟!

هزَّ (صبرى) كتفيه ورأسه ، قائلاً :

ـ لست أدرى ما الذى سيصبح عليه (أدهم) ، عندما يبلغ السادسة عشرة من عمره ، ولكنه حتمًا سيكون مختلفًا عن كل من حوله .

شدَّ (حسن) قامته ، متسائلاً :

ـ لاختلاف إيجابى أم سلبى ؟

استدار (صبرى) يواجهه ، قائلاً فى حزم :

ـ من يدرى ؟!

تطلَّع إليه (حسن) لحظات ، فى صرامة صامتة ، قبل أن يقول :

ـ نعم .. من يدرى ؟!

واندفع يغادر المكان كله ، فى حدة ساخطة ..

وبقى (صبرى) وحده ، يلوذ بالصمت بضع لحظات ، قبل أن يعود مرة أخرى إلى النافذة ، مغمغمًا فى تكرار :

ـ من يدرى ؟!

ولكن الواقع أن الفكرة كانت تعذبه ..

وبشدة ..

فكرة أنه ـ بتجربته ـ قد حرم ولديه طفولتهما ، ودفع بهما إلى مصير لا يعلمه إلا الخالق عزَّ وجلَّ ..

مصير قد يقلب حياتهما ومستقبلهما رأسًا على عقب ..

وإلى الأبد ..

* * *

« أدهم .. »

استدار (أدهم) فى اهتمام ، استجابة لنداء والده ، الذى أشار قائلاً :

ـ حان وقت تنظيف مسدسى .

ابتسم الصبى ، الذى قارب الخامسة عشرة من عمره ، وهو يقول فى حماس :

ـ فورًا يا أبى .

ناوله (صبرى) مسدسه ، وتراجع فى مقعده ، يراقبه فى صمت ، وهو يستعيد ذكرياته ..

سنوات عديدة مضت ، منذ بدأ تجربته مع ولديه ..

سنوات شاقة ، بذل خلالها جهدًا خرافيًا ؛ ليواصل التجربة ، التى بدت للجميع جنونية ..

سنوات أسفرت عن الكثير ..

والكثير جدًا ..

لقد نمت خبرات ولديه ، واكتسبا مهارات شتَّى ، وقدرات لا يمكن أن يحظى بها من فى مثل عمرهما ...

ولكن (أدهم) وحده تفوَّق ، على نحو ملحوظ ..

ميول (أحمد) العلمية ، جعلته يتفوَّق فقط فى الشقّ العقلى من التدريبات ، وبنيته الضعيفة منعته من مواصلة التدريبات البدنية ، ولعبة اكتساب المهارات ..

أما (أدهم) ، فقد تحوَّل إلى تلك الصورة ، التى كان يحلم بها هو ، منذ بداية الأمر ..

ففى السنوات العشر الأخيرة ، تضاعفت قدرته على التقمُّص عدة مرات ، وصار قادرًا على تقليد من يشاء ، بدقة تثير الدهشة والإعجاب ، وتفوَّق فى رياضات الدفاع عن النفس ، واكتسب لغات شتى ، يتحدثها بطلاقة ، وبلكنات أهلها ، على الرغم من أنه لم يبلغ الخامسة عشرة بعد ..

وعبر برنامج خاص دقيق ، تعرَّف معظم أنواع الأسلحة ، وألِفَ التعامل معها ، و ...

قطعه فجأة رنين جرس الباب ، فهمَّ بالنهوض من مكانه ،

إلا أن (أدهم) وثب بسرعة ، قائلاً :

ـ سأفتح أنا الباب .

بوثبة واحدة رشيقة ، بلغ باب المنزل ، وفتحه وهو يبتسم ، قائلاً في ترحاب :

ـ أهلاً بعمى (حسن) !

ارتفع حاجبا (حسن) في دهشة ، وهو يقول :

ـ عجبًا .. كيف تعرّفتني ، حتى قبل أن تفتح الباب يا (أدهم) ؟!

أفسح له (أدهم) طريق الدخول ، وهو يجيب :

ـ لقد سمعت وقْع قدميك ، وأنت تصعد السلم ، وبسبب إصابة ساقك ، فلك وقْع مميَّز ، ثم إن أسلوبك في الرنين ، يعتمد دومًا على أن تضغط الزر مرتين متتاليتين سريعتين ، على عكس عمى (ماهر) ، الذى ...

قاطعه (حسن) ضاحكًا :

ـ كفى يا (أدهم) .. لا داعى لأن تبهرنى أكثر !

نهض (صبرى) يستقبله ، مغمغمًا :

ـ إنه موهوبٌ .. أليس كذلك ؟

أشار (حسن) بيده ، قائلاً :

ـ لا يمكننى الإنكار .

كان (أدهم) قد استعاد مسدس والده ، فسأله (حسن) في قلق :

ـ ماذا تفعل بهذا المسدس يا (أدهم) ؟!

أجابه (صبرى) في هدوء :

ـ إنه يتولى مهمة تنظيفه .

أشار (حسن) بيده محذرًا :

ـ احترس إذن ، فالتعامل مع الأسلحة ليس ...

وبتر عبارته دفعة واحدة ، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما .. فما فعله (أدهم) في اللحظة التالية ، كان مدهشًا .. إلى حد كبير .

* * *

لم يكد (أدهم) يلتقط المسدس ، الذى طلب منه والده تنظيفه ، حتى تحركت يداه بسرعة مدهشة ، ليفك أجزاءه كلها ، ويرصها إلى جوار بعضها .. وفي انبهار ، هتف (حسن) :

ـ مدهش .. لقد فكّ أجزاء المسدس ، فى وقت قياسىّ بالفعل !

ابتسم (صبرى) ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ إنه يفعل هذا طوال الوقت .

هتف (حسن) :

ـ بهذه السرعة ؟!

أشار بيده ، قائلاً :

ـ لقد تفوّق على نحو ملحوظ ، فى تدريبات زيادة سرعة الاستجابة .

مطّ (حسن) شفتيه ، مغمغمًا :

ـ مدهش!

ثم استطرد فى حزم :

ـ ولكن فك أجزاء المسدس ليس بالأمر الصعب .. المهم كما تعلمنا ، هو إعادة تركيبه .

هزّ (صبرى) رأسه ، قائلاً :

ـ صدقنى .

ثم أشار إلى ابنه ، مضيفاً فى حزم :

ـ (أدهم) .

وبنفس السرعة ، تحركت يدا (أدهم) ..

ثلاثون ثانية فحسب ، وعاد المسدس كما كان ..

وبمنتهى الدهشة والانبهار ، هتف (حسن) :

ـ هذا هو المدهش بحق !

ثم ربت على كتف (أدهم) ، قائلاً :

ـ يبدو أنك ستثبت أننى كنت على خطأ ، فى خلافى مع والدك .

تساءل (أدهم) فى اهتمام :

ـ فيم ؟

لم يحاول أحدهما إجابة سؤاله ، وإنما قال (صبرى) فى خفوت :

ـ تستطيع أن تقول بأنك كنت على حق ، فى نصف الأمر ، وكنت أنا على حق ، فى نصفه الآخر .. لقد نجحت التجربة تمامًا مع (أدهم) ، ولم تنجح قط مع (أحمد) .

تلفّت (حسن) حوله ، قائلاً :

ـ بالمناسبة .. أين (أحمد) ؟

أجابه (صبرى) بابتسامة باهتة :

ـ يستذكر دروسه ، استعدادًا لامتحان الثانوية العامة ، ولكنه سيأتى بعد قليل ؛ ليحيى معنا الذكرى السنوية لوفاة والدتهما .

تنهّد (حسن) ، وهو يغمغم :

ـ وهذا ما أتيت من أجله .

كان (أدهم) ينقل بصره بينهما فى صمت ، وهو يعيد فك أجزاء المسدس وتنظيفها ، فأشار إليه والده ، قائلا :

ـ أخبر أخاك أن موعد قدومه قد حان .

نهض (أدهم) لتنفيذ ما طلبه منه والده ، فمال (حسن) نحو (صبرى) ، وقال فى خفوت حذر :

ـ أنت تعلم مثلى أن كل ما اكتسبه ابنك مهارات جانبية فحسب ، وما زال يفتقر إلى المهارات الأساسية ، فى عالمنا الخاص .

غمغم (صبرى) :

ـ أعلم هذا .

ثم نهض من مقعده ، وأضاف وهو يتحرك فى المكان ، فى شىء ملحوظ من التوتر :

ـ ولهذا لابد أن ننتقل معه إلى مرحلة جديدة ، من برنامج التدريب .

تراجع (حسن) فى مقعده ، متسائلاً :

ـ أى مرحلة ؟

التقط (صبرى) نفسًا عميقًا ، وبدا كأنه قد شرد ببصره بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ مرحلة التدريب الميدانى .

ارتفع حاجبا (حسن) فى دهشة ، وهو يقول مستنكرًا :

ـ تدريب ميدانى ؟!.. فى هذه السن ؟!.. المفترض ألاّ يتم هذا ، إلا بالنسبة للعملاء ، فى مرحلة متقدمة .

هزّ (صبرى) رأسه فى حزم ، قائلاً :

ـ (أدهم) يتقدّم فى برنامجه بسرعة ، على نحو يفوق كل ما خططتُ له مسبقًا ، وعلى عكس شقيقه ، يبدو شديد الشغف والاهتمام بكل ما يتعلمه ، وفى رأيى أن الوقت قد حان لخروجه إلى الميدان .

غمغم (حسن) فى قلق :

ـ أظن هذا مبكرًا ، أكثر مما ينبغى .

قال (صبرى) :

ـ ولكن الظروف مواتية تمامًا لهذا .. لقد بلغك بالتأكيد أمر انتدابى المؤقت ، فى سفارتنا فى (موسكو) ، و ...

قاطعه (حسن) ، هاتفًا :

ـ (موسكو) ؟!.. هل تفكر فى اصطحابه معك إلى العاصمة السوفيتية ؟!.. حتى نحن لا نجازف بإرسال عملائنا إلى هناك ، إلا بعد فترة تدريب كبيرة ، فى دول (أوروبا) الغربية !!..

أشار (صبرى) بيده ، قائلاً فى توتر :

ـ ولكننى سأكون هناك ؛ لمساندته عند الحاجة ، ثم إنها فرصة مثالية ، ليتقن الروسية ، التى بدأ دروسها مع الألمانية ، منذ ثلاثة أشهر ، و ...

قاطعه (حسن) مرة أخرى فى حدة مستنكرة :

ـ ولكن (موسكو) ؟!.. أنت تعلم كيف يتعامل رجال المخابرات السوفيتية مع الجواسيس ، الذين يضبطونهم فى أرضهم .. وابنك ، مهما بلغت مهاراته ، ما زال صبيًا ، فى الخامسة عشرة من عمره ، لن يصمد ساعة واحدة ، أمام زبانية الـ (كى . جى . بى) ، بكل قوتهم وجبروتهم وقسوتهم .

قال (صبرى) ، فى حزم عصبى :

ـ لا ينبغى أن يقع فى قبضتهم إذن .

أجابه (حسن) فى صرامة :

ـ وماذا لو حدث هذا ؟!

أشاح (صبرى) بوجهه ، قائلاً :

ـ الغرض من التدريب الميدانى ، هو أن يواجه العميل خطرًا فعليًا ، ويألف التعامل معه .

صاح (حسن) :

ـ ابنك ليس عميلاً .

برز (أدهم) و(أحمد) فى هذه اللحظة ، والأخير يتساءل فى دهشة :

ـ أى عميل هذا ، الذى تتحدثان عنه ؟!

استدار إليه الاثنان ، فى حركة واحدة ، و(حسن) يبتسم قائلاً :

ـ إنه أمر يتعلق بالعمل .

نقل (أدهم) بصره بينهما فى صمت ، وإنْ نمَّ تألُّق عينيه عن فهمه لما حدث ، فغمغم (صبرى) ، محاولاً إدارة دفة الحديث ، إلى اتجاه آخر :

ـ كيف حال دروسك يا (أحمد) ؟

أجابه (أحمد) ، بعد تنهيدة طويلة :

ـ إننى أبذل قصارى جهدى ، على أمل النجاح بمجموع كبير ، يساعدنى على الالتحاق بكلية الطب ، التى أحلم بها منذ زمن طويل .

التفت (حسن) إلى (أدهم) ، متسائلاً :

ـ وماذا عنك ؟.. هل ترغب أيضًا فى الالتحاق بكلية الطب ؟

أجابه (أدهم) فى سرعة :

ـ الكلية الحربية .

ارتفع حاجبا (حسن) فى دهشة ، وهو يقول :

ـ عجبًا !.. كنت أتصوّر أن ...

لم يحاول إتمام عبارته ، وإنما بترها فجأة ، واستدار إلى (صبرى) ، قائلاً :

ـ مرة أخرى ، سأعترف أننى أخطأت .

ثم أشار بسبّابته ، مستدركًا :

ـ فيما سبق فحسب .

أجابه (صبرى) ، فى حزم صارمْ :

ـ وفيما هو آت بإذن الله .

تطلّع إليه (حسن) لحظات فى صمت ، ثم قال فى حنق ، وهو يدير عينيه إلى (أدهم) :

ـ فليكن .. أنت وشأنك .

لم يحاول (أدهم) التعليق على عبارته ، فى حين تساءل (أحمد) فى دهشة بالغة :

ـ فيم تتحدثان بالضبط ؟!

أجابه (أدهم) مبتسمًا :

ـ فيما سبق فحسب .

وارتفع حاجبا (حسن) ، فى دهشة بالغة ؛ لأن الصوت الذى نطق به (أدهم) العبارة ، كان يطابق صوته هو تمامًا ..

وضحك (صبرى) لدهشته ، فى حين غمغم (أحمد) مبتسمًا :

- إنها هواية لا تفارقه قط .

أومأ (حسن) برأسه فى صمت ، ثم التفت إلى (صبرى) ، قائلاً :

- أظنه يحتاج بالفعل إلى تدريب ميدانى .

نطقها ، وأعماقه ما زالت تشعر بقلق بالغ ، مما قد تسفر عنه تلك الرحلة الميدانية المنتظرة ..

وكانت مشاعره القلقة هذه محقة تمامًا ..

فالتدريب الميدانى كان يخفى خطرًا رهيبًا ..

إلى أقصى حد .

* * *

3 - موسكو ...

على الرغم من كل ما تلقاه من تدريبات ، بدا (أدهم) مبهورًا تمامًا ، وهو يرى الجليد السوفيتى لأول مرة ، وتملكه شغف شديد ، وهو يتابع كل ما حوله ، ويرصد أساليب السوفيت ، وأسلوب حديثهم ، وحتى طريقة نطقهم لمخارج الألفاظ ، وانتبه (صبرى) لهذا ، فربت على كتفه ، وقال مبتسمًا :

- ستتسلم عملى فى السفارة ، ثم نخرج معًا ، فى أول جولة ميدانية لك .

أومأ (أدهم) الشاب برأسه متفهمًا ، وحاول أن يسترخى داخل السيارة ، التى تقلهما عبر (موسكو) ، إلى مبنى السفارة المصرية ، فى حين غرق (صبرى) فى لجة من الأفكار المتداخلة ..

كان يدرك جيدًا ، كرجل مخابرات ، أن ذلك التدريب الميدانى شديد الأهمية ، بالنسبة لكل من يقتحم هذا العالم شديد التعقيد ؛ حتى يألف معايشة الواقع ، ومواجهة الخطر ، ويعتاد اتخاذ القرارات الحاسمة ، فى أصعب الظروف وأشقها ، والخروج من ثقب الإبرة ، كما يقولون فى عالمه ..

وكان يرغب بشدة ، فى أن يبدأ (أدهم) تدريباته مبكرًا ؛ حتى تكتمل الصورة ، التى رسمها فى ذهنـه منـذ ما يقرب من ثلاثـة عشر عاماً أو يزيد ..

إلا أنه ، قبل كل هذا ، أب ، يشعر بالقلق والخـوف على ابنه ، الذى سيلقى بـه فـى الميدان ، دون سابق إنذار ، ليخـوض أول مواجهة فعلية له ، مع عالم يراه لأول مرة ..

ولكن عليه أن يقاوم ..

ويحتمل ..

ويصبر ..

هذه هـى ضريبـة النجاح ، فـى العالم الذى اختـاره بإرادتـه ، والذى يحلم بأن يصبح ابنه يومًا سيدًا له ..

« هل تعرف موقع السفارة المصرية من هنا ؟!.. »

ألقى (صبرى) السؤال على (أدهم) فجأة ، فالتفت إليـه هذا الأخير فى اهتمام ، وانطلق عقله فى سـرعة ، يسترجع تفـاصيل خريطة العاصمة السوفيتية ، التى ظلّ يحفظهـا ليومين كـاملين ، وهو يجيب :

ـ بالتأكيد .

ربّت (صبرى) على كتف السـائق ، مـع هذا الجواب ، وهو يقول فى حسم :

توقّف هنا .

أوقف السائق المصرى الأصل السيارة ، وسط الشوارع التـى أغرقها الجليد ، دون أن يفهم سبب هذا ، فالتفت (صبرى) إلـى ابنه ، واستنفر كل إرادتـه ، وهو يقول لـه فـى حزم ، مع فتح الباب المجاور :

ـ الْحَق بى هناك إذن .

نطقها ، محاولاً السيطرة على انفعاله بقدر الإمكان ، وتوقّـع دهشة عارمة من (أدهم) ، أو لمحة استنكار على الأقل ؛ لذا فقد أدهشه أن لجابه الشاب فى بساطة ، وهو يغادر السيارة بحركة سريعة :

ـ فليكن .

كـانت الدهشة والاستنكار من نصيب السـائق ، عندمـا عـاد (صبرى) يربّت على كتفه ، قائلاً :

ـ هيا بنا .

نقل السائق بصره فـى ذعر ، بين وجهى (صبرى) و(أدهم) ، قبل أن يقول بصوت متردّد :

ـ هل .. هل سنتركه هنا ؟! [illegible]

أجابه (صبرى) فى حزم :

ـ سيلحق بنا .

هتف السائق ، وكأنما يحاول إعادته إلى صوابه :

ـ إننا فى قلب (موسكو) ، ورجال الأمن يجوبون الطرقات ، و ...

قاطعه (صبرى) فى صرامة :

ـ ألم تسمعنى جيدًا ؟!.. قلت : هيا بنا .

هزّ السائق رأسه فى قوة ، محاولاً استيعاب الأمر ، ثم انطلق بالسيارة ، منفذًا الأوامر ، و(صبرى) داخلها ، يبذل جهدًا خرافيًا ليبدو متماسكًا ، على الرغم من قلقه الشديد على ابنه ..

أما (أدهم) فقد ظلّ فى مكانه ، يتابع السيارة حتى اختفت عند الناصية ، فالتقط نفسًا عميقًا ، وراجع الخريطة فى ذهنه مرة ثانية ، و ...

وتحرك ..

كانت البرودة قارصة ، والجليد يغطى كل شىء ، ورجال الأمن

منتشرون فى كل الأركان ، إلا أنه بدا هادئًا واثقًا ، وهو يسير فى الاتجاهات التى درسها مرتين ، قبيل قدومه مع والده إلى (موسكو) ..

لم يكن يحمل جواز سفره ، أو أية أوراق تثبت هويته ، ولم تكن لغته الروسية متقنة ، إلا أنه ، مع سيره الواثق ، لم يكن يثير انتباه أحد .. فيما عدا الماجور (ديمترى) ..

والماجور (ديمترى) هذا من رجال (الكى . جى . بى) ، المنوط بهم مراقبة الشوارع والطرقات ، والذين تلقّوا تدريبات مكثفة ، عالية المستوى ، لكشف أى عميل أمريكى ، يحاول التسلُّل إلى النظام السوفيتى ..

ولقد شاهد (ديمترى) (أدهم) يسير وسط المارة ، وعلى عكس رجال الأمن العاديين ، لاحظ أن المعطف الذى يرتديه ليس سوفيتى الصنع ، كما أن الحذاء فى قدميه أفخم مما اعتادوه ، وهذا يعنى أنه ليس سوفيتيًا على الأرجح .. وما دام ليس سوفيتيًا ، فالبديل الوحيد هو أنه أمريكى ..

إلى أن يثبت العكس ..

وفى خفة ، تحرك (ديمترى) ، وأشار إلى رجاله بمحاصرة الهدف ، فتحرك ثلاثة منهم ، لوضع (أدهم) داخل حلقة محكمة ،

دون أن يلفتوا انتباهه ، ثم لم يلبث (ديمترى) أن تقدَّم منه ، واستوقفه فجأة ، قائلاً فى صرامة قاسية خشنة :

ـ أوراقك .

على الرغم من دقة الموقف وخطورته ، ومن إدراك (أدهم) هذا ، ظلت ملامحه هادئة تماماً ، وهو ينظر إلى (ديمترى) ، الذى وضع يده على مقبض مسدسه ، وهو يكرِّر ، فى شىء من الحدة :

ـ أوراقك .. فوراً .

مع عبارته الثانية ، انتبه (أدهم) إلى رجال الأمن الثلاثة ، الذين التفوا حوله ؛ ليمنعوه من الفرار ، ودرس ذهنه فى سرعة صعوبة موقفه ، وأنهم لن يُفلتوه بسهولة ، فرفع أصابعه إلى فمه وأذنيه ، فى حركة سريعة ، انعقد لها حاجبا (ديمترى) ، وغمغم أحد رجاله :

ـ يحاول القول إنه أصم أبكم .

قال (ديمترى) ، فى خشونة أكثر ، وهو يسحب مسدسه :

ـ هراء .. لن يخدعنى صبى مثله .. أوراقك ، وإلا نسفت رأسك فوراً .. هنا .. فى الشارع .

أشار (أدهم) مرة أخرى ، إلى أذنيه وفمه ، فهزَّ (ديمترى) رأسه فى حنق ، وهو يقول :

ـ فليكن .. ما دمت مصراً ..

وأشار إلى الرجال الثلاثة ، مضيفاً فى قسوة :

ـ أحضروه .. سأستجوبه فى مكتبى .

وهنا ، انقض الرجال الثلاثة على (أدهم) الشاب ، وتحركت سيارة أمن قريبة نحوهم ، فى نفس اللحظة التى استدار فيها (ديمترى) لينصرف ، و ...

وفجأة ، تحرك (أدهم) بدوره ..

انزلق دون مقدمات ، بين أقدام الرجال الثلاثة ، وانحنى يندفع من أسفل أذرعتهم ، ثم وثب على مقدمة سيارة الأمن ، ومنها إلى سقفها ، ثم قفز خلفها ..

ومع المفاجأة ، شهق الرجال الثلاثة ، وارتبك سائق سيارة الأمن ، واستدار (ديمترى) فى حركة سريعة ، ليطلق عليه النار ، ولكن التفاتته ، على الأرض الزلقة بالجليد ، أفقدته توازنه ، فسقط على ظهره فى الشارع ، وانطلقت رصاصته فى الهواء ..

أما (أدهم) ، فقد هبط على الجليد خلف السيارة ، وحافظ على توازنه برشاقة مدهشة ، ثم انطلق يعدو مبتعدًا ، فصرخ (ديمترى) ، وهو ينهض من سقطته ، وقد تحوّل وجهه إلى قطعة من الجمر المشتعل ، من شدة الغضب :

ـ أمسكوا به .. لا تسمحوا له بالفرار !

وفور ندائه ، انطلق الرجال الثلاثة خلف (أدهم) الشاب ، واستدارت سيارة الأمن لتطارده ، فوثب داخلها (ديمترى) ، وهو يقول فى غضب شرس :

ـ أريده حيًا .

وبدأت مطاردة رهيبة :

فى قلب (موسكو) ..

* * *

« أين (أدهم) ؟!.. »

ألقى السفير المصرى فى (موسكو) السؤال فى دهشة ، على (صبرى) ، فور وصوله إلى مبنى السفارة ، وتابع فى قلق واضح :

ـ أخبرونى أنه سيأتى بصحبتك .

أومأ (صبرى) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ لقد أتى بالفعل ، ولكننى أطلقته فى جولة ميدانية ، وسيصل وحده بإذن الله .

هتف السفير مستنكرًا :

ـ وحده ؟!.. هنا ؟!.. هل جننت يا (صبرى) ؟!.. إنك لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره بعدُ ، وهذه أول زيارة له إلى (موسكو) ، فكيف تتركه وحده ، وسط رجال أمنها المهووسين طوال الوقت ؟!

انعقد حاجبا (صبرى) ، وهو يجيب ، فى شىء من العصبية :

ـ وماذا لو أنه وجد نفسه فى موقف مماثل فى المستقبل ؟!.. ألا ينبغى أن يعتاد هذا منذ الآن ؟!

هتف السفير :

ـ فى (موسكو) ؟!.. لقد اخترت أصعب عاصمة ، فى الشرق كله يا رجل .. لماذا لم تكن رحلته الميدانية الأولى فى (لندن) أو (باريس) .. أو حتى (روما) ؟!

ازداد انعقاد حاجبَىْ (صبرى) ، وهو يغمغم :

ـ قدَّر الله (سبحانه وتعالى) ، وما شاء فعل !

هزَّ السفير رأسه فى حدة ، قائلاً :

ـ ونعم بالله ! ولكنها مشيئتك أنت يا (صبرى) .. لقد كنت تعلم كل شىء عن السوفيت ، وعلى الرغم من هذا ، فقد ورَّطت ابنك معهم .. أى رجل يقدم على هذا ؟!

أجابه فى حزم متوتر :

ـ رجل ، يرغب فى أن يجعل من ابنه أسطورة .

هتف السفير محنقًا :

ـ حية أم ميتة ؟!

لم يكد ينطقها ، حتى اندفع أحد رجال السفارة إلى المكان ، وهو يقول فى انفعال :

ـ معذرة يا سيادة السفير ، ولكنها أنباء عاجلة .. لقد ألقوا القبض على (أدهم) ، ابن السيِّد (صبرى) .

وهوى قلب (صبرى) بين قدميه .

* * *

« عندما نصل إلى (موسكو) ، ستبدأ رحلتك التدريبية الميدانية يا (أدهم) .. »

استعاد ذهن (أدهم) الشاب تلك العبارة ، التى رددها والده على مسامعه فى الطائرة ، وهو يعدو على الجليد السوفيتى ، وخلفه ثلاثة رجال مسلحين ، وسيارة قوية ..

« ستكون وحيدًا يا (أدهم) ، وعليك أن تعتمد على نفسك ، وألا تتورَّط ، أو تورِّط السفارة ، فى أية أمور .. »

أطلق (ديمترى) رصاصة نحوه ، تجاوزته بالكاد ، وارتطمت بجزء من الجدار ، الذى يعدو إلى جواره ، فانحنى بحركة آلية ، ثم انحرف فى أول شارع جانبى وجده ، وهو يعتصر ذهنه ، على الرغم من الموقف العسير ؛ لتذكُّر كل تفاصيل الخريطة الممكنة ..

المفترض أن يقوده هذا الشارع إلى ساحة شعبية صغيرة ، فى نهايتها زقاق ضيق ، يقود إلى ...

انطلقت رصاصة أخرى خلفه ، من مسدس (ديمترى) ، وضربت الأرض ، خلف قدمه مباشرة ، فوثب إلى الأمام ، ووجد نفسه فى تلك الساحة الشعبية ، وزادت السيارة من سرعتها خلفه ، و ...

ولم يجد ذلك الزُّقاق الضيق أمامه ..

كانت هناك كومة ضخمة من الصناديق الخشبية ، تسد مدخله تمامًا ، وعدد من السيارات المتهالكة أمامها ، بحيث لا يوجد مكان واحد ، يمكن أن يختبئ فيه (أدهم) ..

ومن سيارته ، هتف (ديمترى) فى ظفر :

ـ وقع فى قبضتنا !

مع عبارته ، زاد السائق من سرعة السيارة ، وظهر رجال الأمن الثلاثة ، وهم يلهثون فى شدة ، عند مدخل الساحة الشعبية ، وأصبح الحصار كاملاً ..

بلا مفر ..

وعلى الرغم من لُهاثهم العنيف ، أشهر الرجال الثلاثة مسدساتهم ، وأطلت من عيونهم نظرة وحشية قاسية ، واندفعت السيارة ، فى حين توقَّف (أدهم) تمامًا ، واستدار يواجه ذلك الهجوم الرهيب ..

ثم فجأة ، اتخذ عقله قرارًا جنونيًا ..

ووضعه موضع التنفيذ ..

وقبل أن ينتبه أحدهم إلى ما ينتويه ، اندفع (أدهم) نحو سيارة (ديمترى) ، الذى أدهشه هذا ، فهتف مستنكرًا :

ـ ماذا يفعل ؟!

لم تكن عبارته قد اكتملت بعد ، عندما وثب (أدهم) على مقدِّمة السيارة ، التى لم تتوقَّف لحظة واحدة ، ثم قفز إلى أعلى ، ودار بجسده كله فى الهواء ، ليهبط خلفها مباشرة ..

وأمام رجال الأمن الثلاثة ..

ومرة أخرى ، شهق الرجال الثلاثة بمنتهى الدهشة ، وصرخ (ديمترى) فى سائق سيارته :

ـ استدر .. أسرع .

ضغط السائق فرامل السيارة فى قوة ؛ استجابة لأوامره ، إلا أن هذا الأمر المفاجئ أدى إلى انزلاق الإطارات ، فوق الجليد المنتشر فى المكان ، فاندفعت السيارة بجانبيها ، نحو كومة الصناديق الخشبية ، وارتطمت بها فى عنف ، فتساقط بعضها فوقها ، وسقطت منه عدة زجاجات فودكا ، انتشرت فوق الجليد ..

وفى اللحظات نفسها ، التى حدث فيها هذا ، كان الرجال الثلاثة يُشهرون مسدساتهم ، فى وجه (أدهم) ، الذى تحرك بسرعة مدهشة ، لا تتناسب مع عمره ، وركل المسدس من يد أحدهم ، ثم وثب يلتقطه ، وهبط ينزلق أرضًا ، متجاوزًا الرجال الثلاثة ، الذين صرخ أحدهم :

ـ ما هذا الشيطان ؟!

كانت سيارة (ديمترى) تستدير ؛ لتنقض على (أدهم) مرة أخرى ، والرجلان الآخران يصوبان مسدسيهما إليه ، فمال بالمسدس ، وهو يواصل انزلاقه على الجليد ، وأطلق منه رصاصة ..

رصاصة واحدة ، انطلقت فى المكان المناسب ، فأحدثت شرارة صغيرة ، التقطتها الفودكا المنسكبة ، فاشتعلت النيران فى الساحة كلها دفعة واحدة ، وبسرعة مخيفة ..

ولم ينتظر (أدهم) ليرى نتائج هذا ، وإنما اندفع خارج تلك الساحة الشعبية ، وألقى المسدس بعيدًا ..

وبحركة واحدة ، وصوت واحد ، ارتفعت عشرة مدافع آلية فى وجهه ، وبدت خلفها وجوه عسكرية سوفيتية صارمة ..

ثم ظهر (ديمترى) والرجال الثلاثة من خلفه ، وبدوا أشبه بسليويت صامت ، مع النيران المشتعلة خلفهم ..

وأدرك (أدهم) أنه قد سقط ..

فى قبضة السوفيت ..

الرهيبة ..

* * *

انعقد حاجبا (صبرى) فى شده وتوتر ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، ويواجه نافذة مكتب السفير الكبيرة ، فسأله هذا الأخير فى حدة :

ـ هل ستجلس هنا صامتًا ؟!

غمغم (صبرى) :

ـ إنه تدريب ميدانى .

صاح السفير محنقًا :

ـ ولقد فشل ، وابنك الآن فى قبضة المخابرات السوفيتية ، وكلانا يعلم أنهم لا يرحمون الجواسيس .

غمغم (صبرى) ، وهو يحاول كتمان مرارته فى أعماقه :

ـ إنه ليس جاسوسًا .

صاح السفير :

ـ ومن سيثبت لهم هذا ؟!.. الشهود أكدوا أنه فر منهم ، بأسلوب أقرب إلى المحترفين ، ومن المستحيل أن يصدقوا أنه مجرد صبى عادى .

عضَّ (صبرى) شفته السفلى ، قبل أن يقول :

ـ عليه أن يواجه هذا .

كاد السفير يصرخ :

ـ هل جننت يا رجل ؟!.. إننا لا نتحدث عن عميل ميدانى .. إنه ابنك .

كتم (صبرى) دموع ألمه ، وهو يقول فى حزم :

ـ هنا ، هو عميل ميدانى .. وعليه أن يواجه الموقف .

لم يصدق السفير أذنيه ، وهو يحدق فيه ذاهلاً ، ولكن (صبرى) لم يلتفت إليه بنظرة واحدة ..

ربما ليخفى تلك الدموع ، التى سالت من عينيه فى صمت ..

دموع خوفه على ابنه ..

على (أدهم) ..

* * *

« أنت أمريكى .. أليس كذلك ؟!.. »

نطق (ديمترى) السؤال فى صرامة ، باللغة الإنجليزية ، فرفع (أدهم) عينيه إليه فى هدوء ، وأجابه بإنجليزية سليمة :

ـ ربما .

رمقه (ديمترى) بنظرة قاسية صارمة ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وتحرك قليلاً فى المكان ، ثم قال فى حدة :

ـ لكنتك ليست أمريكية .. ربما كنت بريطانيًا ، أو ...

استوقفته ابتسامة (أدهم) الساخرة ، فصرخ ، وهو يهوى على وجهه بصفعة غاضبة :

ـ لا تسخر منى !

صد (أدهم) الصفعة بساعده الأيسر ، وشعر (ديمـتري) بقوة الساعد ، فتراجع بحركة حادة ، وقال في غضب :

ـ آه .. أنت ترغب في العنف إذن .

هزّ (أدهم) كتفيه ، في لا مبالاة مستفزة ، فاحتقن وجه (ديمتري) ، وقال في شراسة :

ـ لو أنك تتحدى (ديمتري) ، فأنت غبي !

ثم استدار إلى أحد رجاله ، قائلاً بنفس الشراسة :

ـ اطلب (أليكس) .

اتسعت عينا الرجل ، وكأنما أفزعه ذكر الاسم ، واندفع خارج المكان وهو يرتجف ، فاعتدل ديمتري يواجه (أدهم) ، قائلاً :

ـ لو أردنا استنطاق تمثال من الحجر ، فالرفيق (أليكس) هو خير من يفعل هذا .

غمغم (أدهم) في لا مبالاة :

ـ عظيم .

احتقن وجه (ديمتري) أكثر ، ومال نحوه ، وهو يلوّح بمسدسه في وجهه ، قائلاً :

ـ عندما تبدأ في التوسّل ، سأجبرك على لعق حذائي أيها المتعجرف ، و ...

قبل أن يتم عبارته ، تحركت يد (أدهم) في سرعة مدهشة ، فالتقط ماسورة مسدس (ديمتري) ، وأمالها بحركة حادة ، آلمت أصابع هذا الأخير ، فأفلت مسدسه بحركة غريزية ، في نفس اللحظة التي تلقّى فيها ركلة من قدم (أدهم) في صدره ، فتراجع في عنف ، ليجد فوهة مسدسه مصوّبة إليه ، وخلفها (أدهم) الشاب ، يبتسم في سخرية ، وهو يقول في لامبالاة :

ـ أظننا بحاجة إلى إعادة صياغة اسم المتعجرف ، فلقد تركتني بلا قيود ، واقتربت مني لمسافة غير آمنة ، ولم تحكم قبضتك حتى على مسدسك .. للأسف يا صاح .. أنت لا تليق بالعمل ، في جهاز أمن خطير كهذا .

قال (ديمتري) في حدة :

ـ وأنت واهم ، لو تصوّرت أنك تستطيع الفرار من هذا المكان .

هزّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً :

ـ اعتبره تدريبًا ميدانيًا .

فاجأه صوت صارم خشن ، يقول بالإنجليزية :

ـ ولم لا تعتبره محاولة فاشلة ؟!

ومع العبارة ، شعر (أدهم) بفوهة مسدس باردة ، تلتصق بمؤخرة رأسه ، وأدرك أن السوفيت ليسوا هينين ..

على الإطلاق .

* * *

4- كى . جى . بى ..

حمل السفير المصرى حقيبته فى حزم ، وهو يتجه خارج مبنى السفارة ، فاستوقفه (صبرى) فى حزم متوتر ، وهو يقول :

ـ إلى أين ؟!

أجابه السفير فى عصبية :

ـ إلى الـ (كى . جى . بى) .. سأخبرهم أن (أدهم) من رعايانا ، وأنك والده ، و ...

قاطعه (صبرى) فى صرامة :

ـ معذرة يا سيادة السفير ، ولكننى أرفض هذا .

صاح به السفير فى حدة :

ـ ترفض إنقاذ ابنك ، من قبضة الـ (كى . جى . بى) ؟!

أجابه (صبرى) فى عصبية :

ـ أرفض أن نسعى نحن لإنقاذه ، بعد ساعات قليلة من أول رحلة تدريب ميدانى له .. هذا سيفسد كل ما حاولت زرعه فيه ، خلال السنوات الماضية .. لقد جاهدت لأصنع منه شابًا قادرًا

على الاعتماد على الذات ، ولا ينبغى أن أهرَع إليه ، فى أول مأزق يقع فيه .

قال السفير فى غضب :

ـ ما تسميه مأزقًا ، أطلق عليه أنا اسم كارثة ، فابنك لم يرتكب مخالفة مرورية ، أو حتى تشاجر مع رجل شرطة .. لقد تورط مع المخابرات السوفيتية ، وهو معتقل هناك .. ألا تدرك ما قد يفعلونه به ؟!

أجابه (صبرى) ، وهو يتماسك فى بسالة :

ـ أدرك هذا بالتأكيد ، وأتمزق لمجرد التفكير فيه ، ولكننى أحسنت تعليم ابنى وتدريبه ، وحان الوقت لأتأكد من أنه قد أفاد من كل ما لقنته له ، وإلا فلا فائدة ترجى من المواصلة .

حدق فيه السفير بضع لحظات فى دهشة ، ثم هز رأسه فى قوة ، هاتفًا فى سخط :

ـ تلك الفكرة سيطرت على عقلك ، وجعلتك أقرب إلى الجنون !!.. ألا تحب ابنك يا رجل ؟!

شرد (صبرى) ببصره بضع لحظات ، قبل أن يغمغم فى مرارة :

ـ الله (سبحانه وتعالى) أعلم كم أحبه ، وكم أحتمل من أجله .

أطلق السفير زفرة عصبية ، وغمغم :

ـ المهم أن يحتمل هو .

وفى رأسيهما معًا ، ارتسمت صورة يعرفانها جيدًا ..

صورة أروقة تعذيب الـ (كى . جى . بى) ..

المفزعة ..

* * *

دفع (أليكس) (أدهم) فى خشونة ، داخل قبو التعذيب ، وصوب إليه مسدسه فى شراسة ، وهو يقول فى سخرية وحشية :

ـ ألا ترغب فى الاعتراف أيها الصغير ، قبل أن تنسى اسمك ، من شدة الألم ؟!

أحنقه ذلك الهدوء ، الذى أجاب به (أدهم) :

ـ لست أتذكره بالفعل .

أشار (ديمترى) إلى ثلاثة جنود أشداء ؛ ليقفوا متحفزين ، مصوبين فوهات مدافعهم الآلية نحو (أدهم) ، وهو يقول له فى صرامة :

ـ عندما يبدأ (أليكس) فى التعامل معك ، ستتذكر الكثير جدًا .

أشار (أدهم) بسبّابته ، قائلاً :

ـ لقد تعاملنا فى أعلى بالفعل ، ولست أذكر شيئاً .

قال (أليكس) فى حدة :

ـ أنت متبجح أكثر مما ينبغى أيها الصبى ، على الرغم من أنك لم تشعر بقدومى ، عبر النفق السرى ، عندما باغتُّك .

هزّ (أدهم) رأسه ، قائلاً :

ـ أعدك ألا يتكرّر هذا قط .

صاح به (أليكس) :

ـ بالتأكيد .. بعد أن أحطّم عظام ساعديك وركبتيك

تراجع (ديمترى) ، وجلس على مقعد كبير ، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى ، وهو يقول :

ـ هيا يا (أليكس) .. أريد كل ما لديه .

زمجر (أليكس) فى وحشية مخيفة ، وهو يجذب (أدهم) إلى مقعد من المعدن ، ويلصق فوهة مسدسه بصُدغه ، قائلاً :

ـ استرجع كل أحداث حياتك أيها الصبى ، فستقصّها علىّ ، منذ لحظة ميلادك ، وحتى مشهدنا هذا .

« لا تجعل خصمك يخيفك يا (أدهم) .. »

« المنتصر دوماً ، هو من يتمالك جأشه ، ويسيطر على أعصابه طوال الوقت .. »

« ما من نظام أمنى محكم مائة فى المائة .. كل نظام ، مهما بلغ تعقيده ، يحوى حتماً ثغرة ما ، وكل ما عليك هو أن تبحث عن هذه الثغرة ، وعن وسيلة الإفادة منها ، وستخترق أى جهاز أمنى .. »

« السرعة يا (أدهم) .. السرعة والمفاجأة ، يربحان نصف المعركة .. وأنت تربح النصف الثانى » ..

تردّدت كل تلك العبارات فى ذهن (أدهم) ، و(أليكس) يجذبه نحو المقعد المعدنى ، المتصل بأسلاك كهربية ، وأغلال معدنية سميكة ..

وبسرعة ، فرز (أدهم) القبو الواسع ، ودرس موقعه مع (أليكس) ، وموقع (ديمترى) ، وموقع رجال الأمن الثلاثة ، و ...

وفجأة ، انتبه إلى نقطة الضعف ..

وتحرك ..

كان (أليكس) يجذبه نحو المقعد المعدنى ، عندما دار حول نفسه بحركة مباغتة ، وتفادى فوهة مسدس السوفيتى الضخم ، ليحيط عنقه بساعده فى قوة ..

تلك المبادرة المباغتة وحدها ، كانت تكفى لإربك الرجال ، الذين لم يعتادوا المقاومة فى فرائسهم المنهارة قط ..

ولكن (أدهم) الشاب لم يكتف بها ..

فما إن أحاط عنق (أليكس) بذراعه ، حتى وثب بقدميه ، ليركل (ديمترى) فى وجهه ، ثم أكمل دورته ، ليضرب المسدس من يد أحد الرجال الثلاثة ، وبعدها أفلت عنق (أليكس) ، وترك جسده يندفع إلى الأمام ، ليستند بقدميه إلى كتفى الرجل الثانى ، ثم يثب منه ، نحو نافذة مقابلة ..

كل هذا فعله فى أقل من ثانية واحدة ، لم تكد تكتمل ، حتى كان جسده يندفع نحو النافذة ، ويرتطم بزجاجها ، ويحطمه ، ليسقط خارجه ، فوق حارسين يستعدان لركوب سيارة جيب صغيرة ..

كانت مفاجأة عنيفة للحارسين ، اللذين سقطا أرضًا ، قبل أن يسحب أحدهما مسدسه ، ويهتف :

ـ يا للشيطان !.. إنه صبى .

ما إن اكتملت عبارته ، حتى ركله (أدهم) فى أنفه مباشرة ، فى نفس اللحظة التى وثب فيها داخل الجيب ، وأدار محركها ، مع نهوض الحارس الثانى ، وبروز (ديمترى) من النافذة المكسورة ، وهو يطلق النار ، صارخًا :

ـ أوقفوه .. أوقفوا الجاسوس !

اخترقت رصاصاته زجاج السيارة الخلفى ، وتجاوزته لتمرق إلى جوار أذن (أدهم) ، ثم تخترق الزجاج الأمامى ..

ولكن (أدهم) الشاب لم يتوقف لحظة واحدة ..

لقد واصل انطلاقته بأقصى سرعة ، واندفع بالجيب نحو بوابة جهاز المخابرات السوفيتى ، التى أسرع الحراس يحاولون إغلاقها ..

وفى مبادرة مدهشة ، زاد (أدهم) فى سرعة السيارة ، وانعقد حاجباه ، فى صرامة لا تتناسب مع عمره ، وهو ينقض على البوابة ..

ومن موقعه ، خفق قلب (ديمترى) فى عنف ، وبدا له أن السيارة لن تتجاوز تلك البوابة أبدًا ..

ولكن (أدهم) وثب بالسيارة ، وسمع صوت ارتطام جانبيها العنيف بحافتى البوابة ، وتطايرت من حوله شرارات نارية عنيفة ، وتطايرت أجزاء من السيارة حوله ..

ولكنه تجاوز بها البوابة ..

كانت هناك حافلة كبيرة ، تعبر الطريق فى اللحظة نفسها ، فضغط هو فرامل الجيب بكل قوته ، لتنزلق فوق الجليد ، الذى يغمر الطريق ، قبل أن ترتطم بجانب الحافلة فى قوة ..

وفى اللحظة نفسها ، وثب (ديمترى) عبر النافذة ، ولوّح بمسدسه ، وهو يعدو نحو البوّابة ، مكرّرًا :

ـ أوقفوا الجاسوس ، قبل أن يخرج من السيارة !..

ولكن (أدهم) لم يخرج من السيارة ..

ولم يستسلم أيضًا ..

لقد أدار مقوَد الجيب ، وضغط دوّاسة وقودها ، ليعود بها إلى الخلف بحركة حادة ، ثم يندفع بمحاذاة الحافلة ، مبتعدًا عن المكان ..

وخلفه ، انطلقت ثلاث سيارات جيب قوية ، وثب (ديمترى) فى إحداها ، وهو يقول فى حنق :

ـ مستحيل !.. إنه مجرّد صبى .

لم تكن (موسكو) معتادة على مثل هذا النشاط العدائى المفرط فى شوارعها ؛ لذا فقد أصيب المارة بذعر غير محدود ، وهم يعدون مبتعدين عن السيارات ، التى اشتركت فى مطاردة رهيبة ..

كان (أدهم) ينطلق بالسيارة شبه المحطَّمة ، والتى تصدر دويًا رهيبًا ، مع أجزائها المفكَّكة ، وسيارات الجيب الثلاث القوية تطارده فى شراسة ..

ومن سيارته ، ضغط (ديمترى) زر جهاز الاتصال اللاسلكى ، وهو يقول فى صرامة قاسية :

ـ حاصروه ، حتى يتجه إلى شارع (لينين) ... سنظفر به هناك يا رفاق .

لم يسمع (أدهم) العبارة ، وهو ينطلق بالسيارة ، وسط شوارع (موسكو) ، ولم يُدرك أن سيارات الجيب الثلاث كانت تضيق الخناق عليه ، فى مناورة مدروسة ومحسوبة ، بحيث يتخذ مسارًا بعينه ..

ورويدًا رويدًا ، ومع عنف وشراسة المطاردة ، راح يقترب بسيارة الجيب المتهالكة من الفخ ..

من شارع (لينين) ..

وعندما لم يجد أمامه سبيلاً آخر ، انحرف (أدهم) بحركة حادة ، فى أول شارع عريض أمامه ، و ...

وفوجئ بتلك المتاريس المعدنية ..

وكان تفادى الصدام مستحيلاً ..

بكل المقاييس .

* * *

عندما دخل السفير المصرى حجرة (صبرى) هذه المرة ، كان صامتًا ، ممتقعًا ، مبهورًا ، على نحو جعل هذا الأخير يغمغم فى قلق :

ـ هل من جديد ؟!

تطلّع إليه السفير بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يقول ، بصوت خافت مبحوح مرتبك :

ـ ابنك يا (صبرى) !

ازدرد (صبرى) لعابه الجاف ، وهو يتمتم :

ـ ماذا عنه ؟!

أطلق السفير زفرة متوترة ، وهو يجيب :

ـ لقد فرّ من مقر الـ (كى . جى . بى) !

كانت مفاجأة مدهشة ، بالنسبة لـ (صبرى) ، الذى استدار إليه فى حركة حادة ، وتألقت عيناه على نحو عجيب ، وهو يغمغم :

ـ فرّ ؟!

أجابه السفير فى توتر مبهور :

ـ إنها أوّل مرة يحدث فيها هذا ، منذ أنشئوا الكريملين(*) ، وهذا يثير ضجة رهيبة فى الحكومة .

كرّر (صبرى) ، وقد حمل صوته رنة سعادة هذه المرة :

ـ فرّ ؟!.. مدهش!

تابع السفير فى عصبية :

ـ ولكنهم يطاردونه فى قلب (موسكو) .

كان السفير يتوقّع ألف سؤال وسؤال من (صبرى) ، إلا ذلك الذى ألقاه بكل اهتمامه :

ـ هل عرفوا هُويّته ؟!

حدّق فيه السفير ذاهلاً ، فاستدار إليه (صبرى) ، قائلاً فى توتر :

ـ أخبرنى بالله عليك !

ظلّ السفير محدقًا فيه ، وهو يهز رأسه فى بطء ، مجيبًا :

ـ كلا .. إنهم يظنونه أمريكيًا .

أغلق (صبرى) عينيه ، وتمتم فى ارتياح :

ـ حمدًا لله !

(*) الكريملن : قلعة سوفيتية قديمة ، تضم كاتدرائية ، ومقر الحكم ، ومقر جهاز المخابرات ، فى الاتحاد السوفيتى القديم ، و(روسيا) الحديثة ، ويستخدم ليرمز إلى نظام الحكم هناك .

هتف به السفير ، فى غضب مستنكر :

ـ أهذا كل ما يشغلك ؟!.. أخبرك أن ابنك مطلوب ، فى قلب (موسكو) ، وقوات أمنها تطارده ، فلا يقلقك إلا كشفه لهويته ؟!

التقط (صبرى) نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ ابنى (أدهم) شاب ذكى ، شجاع ، وعندما وقع فى قبضة رجال الـ (كى . جى . بى) ، لم يحاول إعلان هويته ، حتى لا يورّط السفارة المصرية فى مشكلة أمنية دبلوماسية .

هتف السفير :

ـ ولكنهم يطاردونه بالفعل .

ضمّ (صبرى) شفتيه ، وهو يقول فى حزم ، حاول به مداراة ذلك القلق العارم فى أعماقه :

ـ إنه لاختباره الميدانى .

قال السفير فى حدة :

ـ خطأ يا (صبرى) .. خطأ .. ربما أتيت بابنك إلى هنا ، فى تدريب ميدانى مفترض ، ولكن الأمر تجاوز هذا ، ودخل فى دائرة بالغة الخطورة .

زفر (صبرى) ، قائلاً :

ـ ما زال تدريبًا ميدانيًا .. ربما بلغ مرحلة خطيرة ، ولكن هذا ما يمكن أن يواجهه عميل ميدانى عادى ، فى ساحة النزال ، وكل عملية قابلة للتحول إلى حالة خطيرة ، دون سابق إنذار .

هتف السفير :

ـ إننا نتحدث عن ابنك !

أجابه فى حزم :

ـ إننا نتحدث عن عميل تحت الاختبار .. تصادف أنه ابنى .

هتف السفير :

ـ هذه المطاردة قد تقتله !

أشار بسبابته ، قائلاً :

ـ والحكمة القديمة تقول : ما لا يقتلك يقويك .

بهت السفير للجواب ، وتطلّع إليه ، مغمغمًا :

ـ ماذا تعنى بالضبط ؟!

شدّ (صبرى) قامته ، واستنفر ما تبقى من إرادته ، وهو يقول :

ـ ما أعنيه واضح تمامًا يا سيادة السفير .. ربما لم أقصد ما حدث بالفعل ، ولكنه جاء فى صالح (أدهم) تمامًا . فتدبير

قدرى ، تحوّل تدريبه الميدانى الأوّل ، إلى مواجهة ميدانية عنيفة ، تكفى لإخراج كل مهاراته وملكاته ، فإما أن ينجو منها ، ويطمئن قلبى إلى أنه ذلك العميل ، الذى حلمت به طويلاً ، وإما ...

لم يستطع إتمام العبارة ، فأكملها السفير فى حزم غاضب :

ـ أو تخسر مشروعك كله ..

ولم ينبس (صبرى) ببنت شفة ..

على الإطلاق ..

* * *

لم يكن هناك مفر من الاصطدام ..

الحواجز والمتاريس كانت تعترض الطريق ، وتغلق جانبيه ، والسيارات الثلاث القوية خلف سيارة (أدهم) المتهالكة ..

والتوقّف كان يعنى الوقوع مرة ثانية ، فى قبضة المخابرات السوفيتية ..

وفى هذه المرة ، لن يرحمه أحد ..

أبدًا ..

لذا ؛ فقد بدا أن الخيار الوحيد هو مواصلة الاندفاع ، وهذا ما استقر عليه ذهن (أدهم) الشاب ، وهو يضغط دوّاسة الفرامل ، ويتجه نحو جزء بارز من الرصيف ، و ...

وفى مشهد خرافى ، لم تشهده (موسكو) من قبل ، وثبت الجيب المتهالكة ، وحلّقت فوق بعض المتاريس لحظة ، ثم هبطت فى عنف ، فوق سيارات الشرطة والأمن ، على الجانب الآخر منها ..

كان مشهدًا عنيفًا ، ومبادرة غير متوقّعة ؛ مما أدى إلى حالة اضطراب قوية ، دفعت بعض رجال الشرطة والأمن إلى إطلاق النار نحو الجيب ، التى انقلبت ، وتدحرجت مرتين ، ثم استقرّت ، وسط فوضى لا حدود لها ..

وفى قوة ، ضغط سائق سيارة (ديمترى) فراملها ، ولم تكد تتوقّف ، حتى وثب منها هذا الأخير ، وهو يلوّح بمسدسه ، هاتفًا :

ـ حاصروا المكان .. لا تسمحوا لأحد بالفرار .

تبعه عدد من رجال الشرطة والأمن ، وانقضوا كلهم على الجيب المحطمة ، يفحصونها فى لهفة شرسة ، قبل أن يهتف (ديمترى) فى حنق :

ـ أين هو ؟!

فعلى الرغم من عنف الحادث ، والمشهد البشع الذى خلّفه ، كانت الجيب المحطمة خالية تمامًا ، إلا من بقعة دماء حديثة ، ولم يكن هناك أثر لـ (أدهم) ..

لم يكن هناك أدنى أثر ..

وفي ثورة عارمة ، صرخ (ديمترى) ، وهو يتلفت حوله :

ـ إنه لم يبتعد كثيرًا .. ابحثوا عنه .. أسرعوا !

في نفس اللحظة ، التي نطق فيها عبارته ، كان (أدهم) يعدو مبتعدًا ، في شوارع (موسكو) الفرعية والجانبية ..

ففي دقة مدهشة ، تدرب عليها كثيرًا ، انتقى اللحظة المناسبة ، ليثب من الجيب ، قبيل لحظة واحدة ، من سقوطها على سيارات الأمن ..

وبينما كانت تتدحرج ، وتتخبط ، وتتكسر ، كان هو ينزلق محتميًا بها ، ويعدو مبتعدًا ..

كان يعدو بكل قوته ، وكأنما فقد آدميته ، وتحول فقط إلى آلة للعدو والجرى ، وعقله يراجع تلك الخريطة ، التى أصرَّ والده على حفظها عن ظهر قلب ، قبيل سفرهما .

الآن أدرك أهمية كل ما يلقنه إياه والده ، الذى خاض عمليات عديدة ، وتعلَّم وخَبَرَ الكثير ..

والكثير جدًا ..

وقبل أن يستعيد بعض عبارات والده ، انطلقت صفارات الإنذار من حوله ، وأدرك أن السوفيت قد قرَّروا إطلاق كل قواتهم خلفه؛ مما يخفض احتمالات نجاته إلى الحد الأدنى ..

ووفقًا للخريطة ، كانت تلك الشوارع الفرعية تقوده إلى شارع الثورة ، الذى سيكتظ برجال الأمن حتمًا ..

كيف يمكن أن يخرج من هذا الموقف إذن ؟!..

كيف ؟!..

كيف ؟!..

تناهى إلى مسامعه صوت سارينة سيارة أمن تقترب ، فانحرف فى أول شارع جانبى ، محاولاً تذكُّر إلى أين يقود ، و ...

وفجأة ، وبعد أن أصبح داخل الشارع بالفعل ، انتبه إلى طبيعته ..

لم يكن شارعًا بالمعنى المعروف ، ولكن مجرد ممر ضيق بين بنايتين ، لا يحوى أية نهاية ، أو أبواب أو نوافذ جانبية ..

فقط مجموعات من مواسير الصرف ، التى تنتهى ببركة ماء آسن ..

باختصار ، لم يكن هناك مَخرَج واحد ..

ومن بعيد ، راح صوت سيارة الأمن يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

وفى إحدى السيارات ، كان (ديمترى) يصرخ ، عبر جهاز اتصال لاسلكى :

ـ أريد ذلك الصبى بأى ثمن .. حيًا أو ميتًا !..

كانت سيارات الشرطة والأمن تحاصر شارعىْ (لينين) و(الثورة) ، وكلها تلقَّت أمر (ديمترى) فى وقت واحد ، فتندفع أكثر من عشرة رجال مسلحين ، ينتشرون فى المنطقة ، ويفتشون المارة ، فى غلظة وشراسة ..

ولم تمض دقيقة واحدة ، حتى بلغوا ذلك الشارع الجانبى المسدود ..

وفى تلك اللحظة ، هتف بهم مواطن سوفيتى :

ـ لقد رأيت ذلك الشاب يدخل هناك ، ولم يخرج بعد .

إثر هتافه ، اندفع خمسة منهم نحو الممر الجانبى ، وهتف أحدهم :

ـ ها هو ذا هناك .

وحتى قبل أن ينتهى هتافه ، كان الخمسة يطلقون نيران مدافعهم الآلية نحو الهدف ..

مباشرة .

* * *

5ـ الثعلـــــب ..

« أنا مضطر إلى إبلاغ (القاهرة) .. »

نطق السفير عبارته فى صرامة حاسمة . فتنهّد (صبرى) فى توتر ، وقال :

ـ ربما يؤدى هذا إلى إفساد الأمر كله .

قال السفير فى حدة :

ـ إنه فاسد بالفعل .. (موسكو) كلها أعلنت حالة الطوارئ ، ونصف رجال أمنها يطاردون ابنك ، فى حين ينصب له النصف الآخر الحواجز والمتاريس ، فأى نهاية يمكن أن تتوقّعها ؟!

أجابه (صبرى) فى عصبية :

ـ لا أحد يمكنه أن يتنبأ بالنهاية .

قال السفير بصرامته :

ـ ربما كان هذا صحيحًا ، ولكنى ما زلت مضطرًا إلى إبلاغ (القاهرة) ، حتى تتخذ ما يلزم ، فى هذا الأمر .

التفت إليه (صبرى) ، قائلاً فى حزم

ـ وما الذى ستخبر به (القاهرة) بالضبط ؟

أجابه السفير :

ـ بما يفعله ابنك هنا .

صمت (صبرى) لحظة ، ثم قال بمنتهى الحزم :

ـ من الناحية القانونية والرسمية ، لم يفعل ابنى (أدهم) شيئًا ، منذ وطئت قدماه (موسكو) ، والسوفيت نفسهم لا يمكنهم اتهامه بهذا ، أو حتى الإشارة إلينا ، فلماذا نجازف بإرسال برقية ، ربما رصدوا شفرتها منذ زمن ، فيكشفون المستور ، ويوقنون ممن يطاردون ، وتتحوّل المشكلة إلى كارثة ؟!

فغر السفير فاه ، أمام ذلك المنطق الأمنى ، وغمغم :

ـ ولكن واجبى يحتم أن ...

قاطعه (صبرى) بنفس الحزم :

ـ لا أحد يمكنه منعك من أداء واجبك ، ولكن علينا دومًا أن نُعمل عقولنا ، فى كل موقف عسير نواجهه ، ومن هذا المنطلق سأطرح اقتراحًا واضحًا .

غمغم السفير :

ـ وما هو ؟

أجابه ، وقد أدرك أنه نجح فى ربح نصف الموقف على الأقل :

ـ سننتظر حتى الغروب ، ونرى ما يمكن أن تسفر عنه الأحداث ، فإما أن يمكننا استعادة أدهم فى أمان ، وإما ...

لم يكمل ، فغمغم السفير :

ـ أو نبلغ (القاهرة) .

ضغط (صبرى) كل أعصابه ، وهو يجيب :

ـ بالضبط ..

نطقها ، دون أن يدرى ماذا يمكن أن يحدث ، حتى مغيب الشمس ..

لم يكن يدرى على الإطلاق ..

* * *

عندما صرخ رجل الأمن ، بأنه يرى (أدهم) ، لم يكن هذا الأخير يقف داخل الشارع الضيق المسدود بالفعل ..

لقد كان هناك ..

فى أعلى ..

كان يتسلّق مواسير الصرف بسرعة مدهشة ، صاعدًا إلى السطح ..

ولقد أطلقوا عليه النار ..

ثلاث رصاصات سريعة ، صوّبوها نحوه ، بما بدا لهم منتهى الدقة ..

وكلها أخطأته ..

سرعة تسلّقه ، والماسورة الضخمة التى يحتمى بها ، ووثباته العلوية المتقطعة ، كلها منعتهم من التصويب عليه بدقة ..

وبمنتهى الغضب ، رآه (ديمترى) يثب إلى سطح المبنى ، ويختفى هناك ، فصرخ فى ثورة :

ـ إنه مجرّد صبى !

ثم انتزع جهاز اللاسلكى ، وصاح عبره :

ـ هليوكوبتر .. أريد هليوكوبتر فورًا ؛ لمطاردة سطح ..

أنهى الاتصال ، والتفت إلى رجاله ، قائلاً فى شراسة :

ـ حاصروا المنطقة .. لو فرّ منكم هذه المرة ، سأرسلكم جميعًا إلى (سيبيريا) .. هل تفهمون ؟!

ذِكْر ذلك المعتقل الرهيب فى (سيبيريا) ، أطلق رجفة عنيفة

فى أجسادهم ، فانطلقوا يحاصرون المنطقة ، دفاعًا عن حريتهم وأمنهم ..

أما (أدهم) الشاب ، فقد راح يعدو على الأسطح المائلة ، فى سرعة فهد ، وخفة قط ، ويثب من سطح إلى آخر ، مسترجعًا فى كل لحظة خريطة (موسكو) ، ومنتقيًا هدفه فيها بدقة ..

ثم فجأة ، ظهرت تلك الهليوكوبتر ..

هليوكوبتر حربية سوفيتية ، برزت فجأة ، وحلقت فوقه ، وقائدها يهتف عبر اللاسلكى :

ـ تم رصد الهدف أيها الرفيق (ديمترى) .. ننتظر الأوامر بإطلاق النار عليه .

هتف به (ديمترى) فى حدة :

ـ تطلق النار على صبى ، يقفز فوق الأسطح ؟!.. وماذا لو أصبت سكان البنايات ؟!.. ألا تدرك أنك تحلق فوق منازل كبار أعضاء الحزب أيها الغبى ؟!

ارتبك الطيار ، وتساءل :

ـ ماذا ينبغى أن أفعل إذن أيها الرفيق ؟

أجابه (ديمترى) فى سرعة :

ـ هذا يتوقف على اتجاه حركته .

راقب الطيار انطلاقة (أدهم) بضع لحظات ، ولم يستطع إخفاء إعجابه بسرعته وخفته ، وهو يجيب :

ـ ينطلق كالفهد ، نحو حى السفارات .

انعقد حاجبا (ديمترى) ، وهو يقول فى غضب :

ـ اللعنة !.. إنه يحاول الاحتماء بسفارته .

مال مساعده نحوه ، وقال فى انفعال :

ـ هذا يعنى أننا لو رصدناه ، يمكننا تحديد هويته .

ازداد انعقاد حاجبى (ديمترى) ، وهو يدير الأمر فى رأسه ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ فليكن .. ولكننا سنحاصر السفارة الأمريكية ؛ لمنعه من دخولها .

وحتى قبل أن يستوعب مساعده الأمر ، كان (ديمترى) يلتقط جهاز اللاسلكى ، ويقول للطيار فى حزم :

ـ ارتفع يا رجل .. اكتف بمراقبته ، ورصد اتجاهه ، واترك الباقى لنا .

اندهش الطيّار للأمر ، إلا أنه لم يملك سوى التنفيذ ، فارتفع بالهليوكوبتر ، وراح يرصد (أدهم) من أعلى .

وعلى الرغم من أنه لا يستطيع التوقُّف لرؤية ما حدث ، فقد أدرك (أدهم) من صوت الهليوكوبتر أنها قد ارتفعت ، ولقد بدا له هذا مثيرًا للانتباه بحق ..

فمطاردة بين شاب وهليوكوبتر ، ليست لها سوى نهاية واحدة حتمية ..

انتصار الهليوكوبتر ..

فلماذا ابتعدتْ إذن ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

كان يدير الأمر جيدًا فى رأسه ، محاولاً تحليله وفهم أبعاده الحقيقية ، عندما لاح له حى السفارات بالفعل ..

وهنا ، وثبت الفكرة إلى ذهنه فجأة ..

بلا مقدمات ، استوعب الأمر كله ..

وأدرك هدف السوفيت ..

وفى نفس اللحظة ، التى أدرك فيها هذا ، كان يثب من سطح إلى آخر ..

ولكن وثبته لم تكتمل هذه المرة ..

لو كانت المسافة أكبر مما ينبغى ..

لذا فقد هوى جسده بين البنايتين ..

بمنتهى العنف ..

* * *

تطلَّع السفير عبر النافذة الكبيرة فى حجرة مكتبه ، وراقب حركة الشمس لحظات ، قبل أن يلقى نظرة على ساعته ، مغمغمًا :

ـ ساعة واحدة ، قبل مغيب الشمس .

أومأ (صبرى) برأسه ، دون أن يجيب ، فصمت السفير بضع لحظات أخرى ، وقال :

ـ سنُضطر إلى إبلاغ القاهرة .

تمتم (صبرى) :

ـ لم تغرب الشمس بعدُ .

تنهّد السفير ، وقال :

ـ أمامنا ساعة واحدة .

صمت (صبرى) بضع لحظات ، ثم سأل :

ـ ماذا عن آخر التقارير ؟!

زفر السفير ، وغمغم فى توتر :

ـ ما زالوا يطاردونه .

غمغم (صبرى) :

ـ ولكنهم لم يظفروا به بعد ؟!

هزّ السفير رأسه نفيًا ، وهمّ يقول شيئًا ما ، لولا أن دخل سكرتير السفارة فى هذه اللحظة ، وهو يقول فى توتر ملحوظ :

ـ سيادة السفير .. لدينا مشكلة !

وهوى قلبا الرجلين ..

بعنف .

* * *

انعقد حاجبا السفير المصرى فى (موسكو) ، وهو يتطلع إلى الشاب الواقف أمامه ، فى حجرة الاستقبال بالسفارة ..

كان شابًا بدينًا ، مكتنز الوجه ، فى منتصف العشرينات من عمره ، وله ملامح طفولية صغيرة ، لا تتناسب مع حجمه ، الذى تضاعف مع معطف الفراء الضخم ، الذى يحيط نفسه به ، والذى جعل السفير يقول فى حذر :

ـ الجو دافئ فى الداخل .

أدرك الشاب ما يرمى إليه ، فأسرع يخلع معطفه ، ووضعه بعناية على مقعد قريب ، ثم وقف أمام السفير كتلميذ مذنب ، ينتظر العقاب ، فسأله السفير بنفس الحذر :

ـ لماذا طلبت مقابلتى ، على هذا النحو العاجل ؟!

ارتبك الشاب ، وهو يجيب :

ـ أنا مصرى فى ورطة ، وأنت سفيرنا هنا ، و ...

قاطعه السفير بنفاد صبر :

ـ ما مشكلتك بالضبط ؟!

تردّد الشاب لحظة ، ثم أجاب :

- مشكلة أمنية .

انعقد حاجبا السفير ، وهو يسأله :

- هل ارتكبت جناية ما هنا ؟!

أجابه الشاب فى سرعة ، وبلهجة أقرب إلى الارتياع :

- مطلقًا .

سأله السفير ، وقد تضاعف حذره :

- ماذا إذن ؟!

مرة أخرى ، تردَّد الشاب بضع لحظات ، وقال :

- لسبب ما ، أعلن السوفيت حالة الطوارئ القصوى ، فى قلب (موسكو) .

تمتم السفير فى ضيق :

- أعلم هذا .

واصل الشاب ، فى شىء من الانفعال :

- ونظراً لحالة الطوارئ ، يراجعون أوراق كل الأجانب ، وحتى المواطنين .

حاول السفير استنتاج الباقى ، وهو يتساءل :

- وأنت لا تحمل أوراقًا ؟!

تنهَّد الشاب ، وأجاب فى خفوت :

- بل أملك كل الأوراق المطلوبة .

شعر السفير بدهشة غاضبة ، وهو يقول فى حدة :

- ما المشكلة إذن ؟!

طال تردُّد الشاب هذه المرة ، قبل أن يجيب ، فى خفوت أكثر :

- كلها زائفة .

خُيِّل للسفير أنه لم يسمع الجواب جيدًا ، وهو يميل برأسه نحو الشاب ، قائلاً :

- ماذا ؟!

تنحنح الشاب ، والتقط نفسًا عميقًا ، ربما للسيطرة على أعصابه ، قبل أن يكرِّر :

- كل ما أحمله من أوراق زائف .

حدَّق فيه السفير بمنتهى الدهشة ، فارتبك الشاب أكثر ،

وأضاف ، وهو يخفض عينيه فى خزى :

ـ أنا صنعتها .

تضاعفت دهشة السفير ، ولم يستطع النطق بحرف واحد ، وهو يمد يده إلى الشاب ، الذى فهم ما يعنيه ، فالتقط أوراقه ، وناوله إياها ..

ومع دهشة بلا حدود ، راجع السفير الأوراق ..

كل الأوراق ..

كانت تبدو له سليمة تمامًا ، دون ذرة واحدة من الشك ..

تصريح إقامة ..

رخصة قيادة ..

بطاقة جامعية

وحتى بطاقة للحصول على السلع المدعومة ..

كانت تحمل اسمًا روسيًا ، يوحى بأنه مواطن سوفيتى أصلى ..

وبكل توتره ، رفع السفير سماعة الهاتف ، وقال لسكرتير السفارة ، فى لهجة حملت كل انفعاله :

اطلب من (صبرى) الحضور .. هذا يحتاج إلى خبير أمنى .

وأنهى الاتصال ، وهو يرفع عينيه إلى الشاب ، الذى وقف مطأطأ الرأس فى خزى ، وسأله :

ـ ما اسمك يا بنى .. اسمك الحقيقى ؟

أجابه بلهجة أقرب إلى البكاء :

ـ (قدرى) .. اسمى (قدرى) .

وخطَّ القدر سطرًا جديدًا فى الأسطورة ..

أسطورة البداية ..

* * *

لا أحد يمكنه أن يدّعى رؤية (موسكو) الحقيقية ، إلا لو رآها فى قلب الشتاء .. فعلى الرغم من التصميم الذى يعتمد على الأقبية ، والأسطح المائلة ، والذى تعمّده قدامى مصمميها ، حتى لا تتراكم الثلوج فوق الأسطح ، إلا أنها تتجمّع كلها عند أُطُر النوافذ ، وعلى الأرضيات والطرق ، فتمنح العاصمة الجليدية مظهرًا يليق بتاريخها العتيد ..

العاصمة ، التى تكسرت على أبوابها جيوش (نابليون بونابرت) ، و(أدولف هتلر) ، واندحرت ، وعادت إلى بلادها ، تجر أذيال الخيبة ، مع مرارة الهزيمة والعار ..

فى تلك العاصمة ، هوَى جسد (أدهم) الشاب ، من الطابق الرابع ..

كان السطح ، الذى وثب ليبلغه ، أبعد مما ينبغى ، حتى إنه فوجئ بجسده يعجز عن بلوغه ..

فهوى ..

ومع سقوطه ، بدا له أنه تسرّع ، وبالغ كثيرًا ، فى تقدير قدراته ومهاراته ، فى مواجهة كهذه ..

كان ينبغى أن يتلقَّى مزيدًا من التدريب ..

ويكتسب المزيد والمزيد من الثقة ..

ولكن أفضل ما فى (أدهم) ، منذ طفولته ، هو أنه لا يضيع لحظة واحدة ، فى الندم على ما فات ..

فقط يدرس لحظته ..

ومستقبله ..

كل ما يفيد به من الماضى ، هو أن يكتسب خبرة ، أو يتفادى تكرار خطأ ..

وفى تلك اللحظة ، وبينما يهوى جسده ، كان يدرس الموقف كله ، فى سرعة بالغة .

وبعقل ملتهب ..

وعندما رصدت عيناه قائمًا بارزًا ، من جدار المنزل المقابل ، دفع جسده نحوه ، كما لو أنه يستطيع التحكُّم فيه ، مع سقوطه المريع ..

والمدهش أنه فعلها ..

بوسيلة ما ، ربما هى إرادة فولاذية ، استجاب له جسده ، واندفع سنتيمترات قليلة إلى الأمام ، وامتدَّت يده نحو القائم ، و ...

وتشبَّث به ..

ذلك التشبُّث أوقف سقوطه دفعة واحدة ، فشعر بألم فى عضلاته ، واندفع جسده كله نحو جدار المنزل ، فرفع قدميه ، يستقبل بهما الجدار ..

واستقر هناك ..

لم يستقر سوى لحظة واحدة ، سمع بعدها صوتًا يصرخ بالروسية :

ـ ها هو ذا !

رفع عينيه بسرعة ، إلى مصدر الصرخة ، ورأى رجلاً مذعورًا ، يطلّ عليه ، من شرفة الطابق السفلى ، ثم يسرع ليصرخ فى رجال الأمن ، الذين يعدُون فى الشارع ..

ودون أن يضيع لحظة واحدة ، أفلت (أدهم) يده ، يندفع نحو تلك الشرفة ، فهبط داخلها ، ورأى الرجل يمتقع ، ويتراجع صارخًا :

ـ جاسوس .. جاسوس !

كان رجال الأمن يعدون نحو الشارع ؛ استجابة لصرخة الرجل ، فتعلّق (أدهم) بقائم الشرفة ، ووثب منها إلى الشرفة السفلية ، ثم منها إلى شرفة الطابق الأول ، فى نفس اللحظة التى وصل فيها رجال الشرطة ، وبدءوا يطلقون النار نحوه ..

ومع إطلاق النار ، وحتى لا يحاصَر داخل المبنى ، وثب (أدهم) الشاب من شرفة الطابق الأول إلى الأرض ، وانطلق يعدو مرة أخرى ، فى عكس اتجاه رجال الشرطة ، الذين واصلوا إطلاق النار خلفه ، محاولين إصابته ، وقد بلغ غضبهم مبلغه ..

كان يعدو بكل قوته ، محاولاً بلوغ الطرف الآخر للشارع ، عندما فوجئ بعدد آخر من رجال الشرطة يعترضون طريقه ، ويشهرون مسدساتهم بدورهم ..

ومرة أخرى ، أعاد عقل (أدهم) الشاب دراسة الموقف بمنتهى السرعة ، ودارت عيناه حوله ، محاولة رصد ما يمكن الاستعانة به ..

ولكن الطريق كان خاليًا ، والأبواب كلها موصدة ، ولا يوجد سوى شارع جانبى واحد ، يبعد عنه عشرين مترًا على الأقل ، وثلاث دراجات متراصة ، أمام أحد مداخل المنازل ..

وبلا تردد ، وثب (أدهم) فوق إحدى الدراجات الثلاث ، وانطلق بها ، وهو يستعيد أيام لهوه مع شقيقه (أحمد) فى طفولتهما ..

ومع المبادرة المفاجئة ، توقَّف رجال الشرطة عن إطلاق النار لحظة ، وخاصة الذين كان ينطلق نحوهم ، فى نهاية الشارع ، واستغلّ هو عامل المفاجأة ، على نحو مدهش ، ليبلغ ذلك الشارع الجانبى ، ثم ينحرف فيه بدراجته ، بأقصى سرعة تسمح بها ..

وفور انطلاقه ، سحب أحد رجال الشرطة جهاز اتصاله اللاسلكى ، وهتف :

ـ أيها الرفيق (ديمترى) .. إنه يتجه نحوك .

التقط (ديمترى) الاتصال ، وهو يجلس داخل إحدى سيارات الأمن ، فتحفزت كل حواسه ، وتأهب لملاقاة (أدهم) ، عند مخرج الشارع ..

ولكنه لم يكن يتوقَّع قط رؤيته ممتطيًا دراجته ، ويندفع بها فى مهارة مدهشة من الشارع ، ثم ينحرف إلى الطريق الرئيسى ، وينطلق مبتعدًا ..

وبحركة تلقائية ، أطلق (ديمترى) رصاصتين خلفه ، قبل أن يصرخ :

ـ الحقوا به !

ومع صرخته ، انطلقت سيارته ، مع سيارتين أخريين ، تطارد (أدهم) ..

وكانت أعجب مطاردة شهدتها (موسكو) ، فى تاريخها كله ..

مطاردة بين ثلاث سيارات أمن قوية ..

ودراجة !

* * *

6- دراجــــة ..

على الرغم من محنته ، لم يستطع (صبرى) إخفاء دهشته وإعجابه ، وهو يقلّب أوراق (قدرى) الزائفة بين يديه ، قبل أن يسأل السفير :

- أأخبَرك أنه صنعها بنفسه ؟!

أومأ السفير برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

- هذا أدهشنى أيضًا ؛ فهى متقنة للغاية .

هزّ (صبرى) رأسه ، وقال :

- ليست متقنة فحسب ، إنها تحفة ، ولولا أن السوفيت ، فى ظروف الطوارئ ، سيراجعون الأرقام مع سجلاتهم ، لما أمكن كشفها قط .

تمتم السفير :

- هذا صحيح .

ثم جلس خلف مكتبه ، وهو يسأل :

- ماذا سنفعل به ؟

صمت (صبرى) بضع لحظات مفكرًا ، قبل أن يسأله :

- أما زلت تحتفظ به ؟

أومأ السفير برأسه إيجابًا ، وقال :

- لا يمكننا التخلّى عنه ، فى مثل هذه الظروف .. إنه مواطن مصرى ، وفور إعادته إلى (مصر) ، سأعمل على تسليمه للسلطات .

غرق (صبرى) فى التفكير ، وهو يقول فى شرود :

- أو ربما نمنحه عفوًا شاملاً .

هتف السفير مستنكرًا :

- عفوًا ؟!

لوّح (صبرى) بالأوراق ، قائلاً :

- لا يمكنك أن تخسر موهبة كهذه .

مرة أخرى استنكر السفير :

- موهبة ؟!.. إنه مجرّد مزوّر ومحتال .

أجابه (صبرى) :

- هذا لا يمنع أنه موهوب .

حدّق السفير فيه بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه ، متمتمًا :

- فى بعض الأحيان ، لا يمكننى فهمك .

غمغم (صبرى) :

- لا تجعل هذا يدهشك .

ثم تراجع فى مقعده ، وهو ما زال يلوّح بالأوراق الزائفة ، وقد شعر أن القدر قد ساق إليه (قدرى) ، فى تلك اللحظات بالذات ؛ لهدف ما .

هدف ما زال غامضًا ..

للغاية ..

* * *

من المؤكد أنها كانت أعجب مطاردة ، شهدتها العاصمة (موسكو) ، فى تاريخها كله ..

ربما لم تكن بعنف مطاردات سابقة أو لاحقة ، إلا أنها كانت مختلفة ..

مختلفة للغاية ..

كانت مطاردة شرسة ، بين ثلاث سيارات أمن قوية ..

وشاب يمتطى درّاجة ..

ولكن كل من أسعده الحظ برؤية تلك المطاردة ، يمكنه أن يقسم أن ذلك الشاب ، بغض النظر عن هويته ، لم يكن شابًا عاديًا ..

لقد بدا أشبه بشيطان صغير ..

شيطان لا يقود درّاجته بمهارة مدهشة ، ويحفظ توازنها على الأرض الزلجة بقدرة مستحيلة فحسب ، وإنما كان يناور السيارات الثلاث ، ويفلت منها ، بجرأة لا مثيل لها أيضًا ..

فمع بدء المطاردة ، كان (أدهم) الشاب ينطلق فى خط مستقيم ؛ لذا فقد لحقت به السيارات الثلاث فى سرعة ، وكاد (ديمترى) يصدمه بسيارته ، عندما انحرف (أدهم) فى سرعة ومهارة ، على نحو مباغت ، ووثب بدرّاجته فوق الإفريز ، وانطلق بها وسط المارة ، الذى أصابهم الذعر ، فأفسحوا له المجال ، و(ديمترى) يهتف فى سيارته فى غضب :

- يا للشيطان !..

حاول أن يلحق به ، إلا أن أعمدة الإنارة كانت تمنعه من هذا ، فاكتفى بالانطلاق فى محاذاته ، وهو يهتف بإحدى السيارتين الأخريين ، عبر اللاسلكى :

ـ تقدّم ، واقطع الطريق عليه .

زادت السيارة من سرعتها ؛ لتسبق (أدهم) عند نهاية الطريق ، فى حين أخرج (ديمترى) مسدسه ، وصوّبه نحو (أدهم) فى إحكام ، مغمغمًا فى بغض :

ـ فلنترك هويتك لما بعد أيها الصبى ..

قالها ، وأطلق رصاص مسدسه نحو الهدف ..

مباشرة ..

* * *

شعر (قدرى) الشاب بارتباك شديد ، وهو يقف أمام عينى (صبرى) الفاحصتين ، اللتين تفحّصتا كل سنتيمتر منه ، قبل أن يسأله هذا الأخير فى هدوء ، حمل نبرة صارمة مخيفة :

ـ من أنت بالضبط ؟

خفض (قدرى) عينيه بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى خفوت :

ـ يمكنك أن تقول : إننى فنان .

سأله (صبرى) فورًا :

ـ فى أى مجال ؟

تردّد (قدرى) على نحو ملحوظ ، قبل أن يجيب :

ـ منذ طفولتى ، وجدت فى نفسى المقدرة على تقليد كل ما يقع فى يدى .. ومع نموّى ، رحت أراعى التفاصيل أكثر ، حتى بتُّ اليوم قادرًا على تقليد أى شىء ، بأدق التفاصيل .

سأله فى اهتمام :

ـ أهذا ما دفعك إلى الفرار من (مصر) ؟

انتفض (قدرى) هاتفًا ، فيما يشبه الفزع :

ـ أنا لم أفر من (مصر) !

سأله فى صبر :

ـ لماذا أنت هنا إذن ؟

أجابه (قدرى) فى سرعة :

ـ لقد أتيت لدراسة فن المُنَمنَمات .. إنه فن التفاصيل الدقيقة للغاية ، والذى لم تدخل (مصر) مضماره بعد .

مال (صبرى) نحوه ، متسائلاً :

ـ أتعنى أن أوراقك كلها سليمة ، فى هذا الشأن ؟

أجابه فى حماس :

ـ بالتأكيد .

لوّح (صبرى) بالأوراق ، وهو يسأله فى صرامة :

ـ لماذا تسير بأوراق زائفة إذن ؟

تردّد (قدرى) طويلاً ، فى شىء من الخزى هذه المرة ، قبل أن يجيب ، وهو يعود لخفض عينيه أرضًا :

ـ المواطنون هنا يحصلون على امتيازات عديدة .. أسعار مخفضة ، سلع خدمية ، وأخرى لا يحصل عليها سواهم .. بل هناك بضع خدمات مجانية أيضًا .. ولمّا كان ما يرسله أبواى أقل مما يكفينى للعيش والدراسة كأجنبى ، فـ ..

قاطعه (صبرى) :

ـ لا بأس .. لقد فهمت .

بدا صوت (قدرى) أقرب إلى البكاء ، وهو يقول :

ـ كل ما أردته هو دراسة فن المنمنمات .

تطلّع إليه (صبرى) لحظات فى صمت ، ثم سأله :

ـ سؤالان أخيران يا (قدرى) .. لماذا لم تحمل أوراقك السليمة معك ؟! وكيف تقنع السوفيت أنك واحد منهم ؟!

كان يدرك ، بحكم خبرته ، أن هذا أمر بالغ الصعوبة ؛ نظرًا لانغلاق الشعب الروسى ، وقوة وسطوة أجهزة أمنه ؛ لذا فقد كان الجواب يهمه بشدة .. كرجل مخابرات ؛ مما جعله يرهف سمعه ، و(قدرى) يجيب :

ـ الأمن يصاب بالهوس أحيانًا ، ويقوم بتفتيش عشوائى للبعض ، فى مناطق عشوائية ، ولو عثروا على الأوراق المصرية والسوفيتية معى ، سيكون هذا دليل إدانة واضحًا ، ولو أنك راجعت كل ما لديك من أوراق ، ستجد أننى قد أوضحت فيها أننى رجل أبكم أتلقى علاجًا منتظمًا ، ولما كنت أجيد الروسية ...

مرة أخرى ، قاطعه (صبرى) ، مغمغمًا :

ـ مدهش !

رفع (قدرى) عينيه إليه فى دهشة ، فتراجع (صبرى) فى مقعده ، قائلاً :

ـ إذن فالقدر هو الذى ساقك إلينا الآن يا (قدرى) .

لم يفهم (قدرى) ما يعنيه ؛ لذا فهو لم ينبس ببنت شفة ..

على الإطلاق ..

* * *

رجل المخابرات السوفيتى (ديمترى) ، يجيد التصويب إلى حد كبير ؛ لذا ، فعندما صوّب مسدسه نحو (أدهم) ، من هذه المسافة القريبة ، كان واثقًا تمامًا من إصابته ؛ لذا فهو لم يتردّد ، وأطلق النار ..

وهنا ؛ تدخّل القدر ..

ففى نفس اللحظة ، التى ضغط فيها زناد مسدسه ، ضغط قائد سيارته فراملها بخفة ؛ لتفادى الاصطدام بسيارة أمامه ..

ومع انخفاض السرعة المفاجئ ، طاشت الرصاصة ، لتصيب الجدار ، خلف رأس (أدهم) مباشرة ؛ مما دفع هذا الأخير إلى الانطلاق فى خط متعرّج وسط المارة ، و(ديمترى) يصرخ فى سائقه :

ـ أيها الغبى الحقير !

ثم التفت إلى مساعده فى المقعد الخلفى ، وهتف به :

ـ البندقية ذات المنظار .. استخدم البندقية ..

كان مساعده قناصًا قديمًا محترفًا ؛ لذا فلم يكد يسمع الأمر ، حتّى جذب البندقية من جواره ، وأسندها إلى كتفه ، وصوّبها نحو (أدهم) ، على الرغم من حركته الملتوية ..

كان قد بلغ نهاية الإفريز ، عندما شاهد سيارة الأمن الثانية تعترض طريقه ، وخلفها صف طويل من الدراجات ، وفى اللحظة نفسها ، كانت مؤخرة رأسه تملأ عدسة منظار البندقية ، والمساعد يغمغم :

ـ وداعًا أيها الصبى ..

وكان هذا يعنى أنه لم يعد هناك مفر ..

أى مفر

* * *

فجأة ، ألقى (أدهم) الشاب ثقله إلى مؤخرة دراجته ، ورفع عجلتها الأمامية بحركة بارعة ، وواصل انطلاقه بها ، على عجلتها الخلفية فقط ..

تلك المبادرة المباغتة أطاشت رصاصة القناص ، التى عبرت بين ذراعه وجانبه ، وواصلت طريقها ، لترتطم بالزجاج الأمامى لسيارة الأمن الثانية ؛ مما أثار هلع وذعر ركابها ..

وقبل أن يُفيقوا من انفعالاتهم ، وثب (أدهم) بدراجته على مقدّمة سيارتهم ، ومنها إلى سقفها ، ثم إلى مؤخرتها ، قبل أن يثب بها نحو السيارة التالية ، ويواصل انطلاقه فوق السيارات المتوقفة فى صف طويل ..

وبكل ثورته ، صرخ (ديمترى) هذه المرة فى رجاله :

ـ ماذا أصابكم ؟!.. إنه مجرّد صبى!! . هل تعجزون كلكم عن اللحاق بصبى واحد ؟!

تمتم مساعده فى حنق :

ـ ليس صبيًا .. إنه شيطان !

استدار إليه (ديمترى) فى غضب :

ـ لا وجود للشيطان .

احتقن وجه مساعده ، وغمغم فى سرعة وارتباك :

ـ أعنى أنه يشبه ما يصفون به الشيطان ، فى الكتب البدائية .

رمقه (ديمترى) بنظرة صارمة ، وسيارته تنحرف خلف (أدهم) فى سرعة كبيرة ، إلى حى السفارات ، الذى بلغه هذا الأخير ، وأصبح ينطلق عبْره بدراجته فى سرعة كبيرة ..

كانت السيارتان المتبقيتان تقتربان منه فى سرعة ، وهو يقود درّاجته .

أسرَع ..

وأسرع ..

وأسرع ..

ولكن السيارات واصلت اقترابها بسرعة مخيفة ..

ولوهلة ، تصوّر (ديمترى) أن الأمر قد انحسم ، وأن المطاردة المرهقة ستضع أوزارها حتمًا ، فى ذلك الحى الهادئ الخالى ، الذى يمتد لمسافة قصيرة للغاية ..

ولكن فجأة ، انحرف (أدهم) بالدرّاجة ، فى حركة حادة ، ليثب فوق الإفريز ، وينطلق بها فى فراغ ضيق للغاية ، بين مبنيين ..

وهنا ، وبمنتهى الغضب والسخط ، صرخ (ديمترى) فى ركاب السيارة الثانية ، عبر اللاسلكى :

ـ ابقوا هنا ، وسنلحق به عند الطرف الآخر .

كان مضطرًا إلى الدوران بسيارته حول المبنى كله ؛ لبلوغ الطرف الآخر من ذلك الممر الضيق ؛ مما أضاع نصف دقيقة كاملة ..

وكانت ثلاثين ثانية ثمينة للغاية ..

فعندما بلغت سيارته الطرف الآخر للممر ، كانت دراجة (أدهم) ملقاة هناك ، أما هو ، فلم يكن له أثر ..

أدنى أثر ..

وبكل حنق الدنيا ، غادر (ديمترى) سيارته ، وهو يحمل مسدسه ، وتلفت حوله فى عصبية ، قبل أن يصرخ فى ثورة :

ـ ابحثوا عنه .. حاصروا المنطقة كلها .. فتشوا كل مبنى غير ديبلوماسى .. افعلوا أى شىء .. أريده بأى ثمن .. هل تسمعون ؟! بأى ثمن !

ثم عضَّ شفته السفلى ، حتى كاد يُدميها ، قبل أن يغمغم فى حنق بلا حدود :

ـ سنلتقى مرة أخرى أيها الصبى .. أقسم لك إننا سنلتقى !

لم يدر لحظتها كم كانت عبارته صادقة ..

لم يدر قط(*) ..

* * *

حدَّق السفير فى وجه (صبرى) فى دهشة ، وهو يقول مستنكرًا :

ـ أى قول هذا بالضبط ؟!

(*) سينشر هذا العمل قريبًا بإذن الله ، تحت عنوان (العملية السوفيتية)

أجابه (صبرى) فى حزم :

ـ القول العقلانى والمنطقى يا سيادة السفير .. (قدرى) هذا خامة ممتازة ، وموهبة لا يمكن التغاضى عنها ، وإما أن نظفر نحن به ، وإما أن يظفر به غيرنا .

هتف السفير :

ـ هذا لا يبرر ضمَّه إلى المخابرات .

هزَّ (صبرى) رأسه ، مجيبًا :

ـ على العكس .. موهبته ستساعد كثيرًا فى تطوير القسم الفنى ، ووجوده بين صفوفنا سيمنحنا مزيَّة كبيرة .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ ثم إننا بحاجة إليه الآن بالفعل .

انتفض السفير ، وهو يسأله مستنكرًا :

ـ فى حاجة إليه ؟!.. كيف ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ بعد مواجهة (أدهم) مع رجال الأمن هنا ، على هذا النحو السافر ، سيصبح خروجه من الاتحاد السوفيتى أمرًا صعبًا للغاية ؛

إذ ستملأ صورته الطرقات ، والمحال العامة ، والمطار بالتحديد ؛ لذا فأوّل ما ينبغى أن نفعله لإخراجه من هنا ، هو تبديل هيئته .

غمغم السفير فى عصبية :

ـ هذا ليس بالأمر السهل .

ابتسم (صبرى) ، وقال :

ـ يتصادف أن (أدهم) يتقن فن التنكّر إلى حد مدهش ، ويتصادف أيضًا أننى أحمل فى حافظتى عدة صور له ، فى هيئات مختلفة .

مال السفير إلى الأمام ، وهو يقول فى عصبية :

ـ هذا قد يساعدنا على استخراج جواز سفر جديد له ، بهيئته التى تتحدث عنها ، ولكن ماذا عن تأشيرات دخول الاتحاد السوفيتى .

أشار (صبرى) بيده ، قائلاً :

ـ هنا ، يأتى دور (قدرى) .

فهم السفير ما يعنيه (صبرى) ، فتراجع فى مقعده فى عصبية ، قبل أن يقول فى شىء من الحدة :

ـ ألا ترى أن هذا حديث سابق لأوانه ؟!.. أنسيت أن ابنك لم ينجُ من المواجهة ، ولم يَعُدْ بَعْدُ ؟!

لم يكد ينطق عبارته ، حتى انفتح باب حجرته ، وظهر على عتبته (أدهم) ، والإرهاق محفور على ملامحه ، وهو يغمغم :

ـ معذرة يا أبى .. لقد أخطأت .

لا أحد فى الدنيا يمكنه أن يشرح مشاعر (صبرى) فى تلك اللحظة ، وهو يستدير فى لهفة ، لينظر إلى ابنه ..

كانت مزيجًا مدهشًا ، من الفرح ، واللهفة ، والارتياح ، والسعادة ، والفخر ، والإعجاب ..

ومن أعمق أعماقه ، تمنى لو يندفع وحده ، ويحتويه بين ذراعيه ، ويغمره بالقبلات ، إلا أنه استنفر كل رجل المخابرات فى أعماقه ؛ ليتماسك بقوة ، وليسيطر على مشاعره وصوته ، وهو يسأله :

ـ كيف كانت رحلتك الميدانية الأولى ؟

أجابه (أدهم) بزفرة طويلة ، أعقبها قوله :

ـ مرهقة .

نقل السفير بصره بينهما فى دهشة ، قبل أن يهتف بـ (أدهم) :

ـ كيف دخلت إلى هنا ؟!

أجابه (أدهم) ، محاولاً تهدئته :

ـ معذرة يا سيادة السفير ، ينبغى أن أطرق الباب أولاً ، و ...

قاطعه السفير فى حدة :

ـ كيف دخلت السفارة ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ اطمئن .. لم يشعر أحد بدخولى قط .

هتف السفير :

ـ حتى رجال الأمن ؟!

تردّد (أدهم) لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ ليس ذنبهم .. لقد تدربْت على هذا .

هبّ السفير من مقعده ، واندفع خارجًا ، وهو يهتف فى حنق :

ـ وهذا يعنى أنهم يستحقون العقاب !

ابتسم (صبرى) ، واقترب من ابنه ، وربّت على كتفه فى فخر ، وقد أدرك ، فى هذه اللحظة فقط ، أن حلم عمره قد تحقّق .. على أكمل وجه ..

* * *

قضم (قدرى) الشاب قضمة كبيرة ، من الشطيرة الساخنة فى يده ، وهو يناول (أدهم) الشاب جواز سفر جديدًا ، قائلاً :

ـ تفضل يا صديقى .. كل شىء يبدو طبيعيًا .. أتضمن أن تنجح فى خداع السوفيت .

ألقى (أدهم) الشاب نظرة على عمله المتقن ، وقال :

ـ أنا واثق من أنها ستفعل .

ربّت (صبرى) على كتف ابنه ، وقال مبتسمًا :

ـ طائرتك ستقلع بعد ساعتين من الآن ، وهذا يعنى حتمية ذهابك إلى المطار فورًا .

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، والتفت إلى (قدرى) ، يصافحه قائلاً :

ـ أشكرك يا صديقى ... أتمنى أن نلتقى مرة أخرى فى المستقبل ، لأعبّر لك عن امتنانى بما فعلت .

ابتسم (صبرى) ، وربّت عليهما معًا ، قائلاً :

ـ اطمئن .. لو سارت الأمور كما أخطط لها ، فستلتقيان كثيرًا فى المستقبل ، إن شاء الله ..

كانت كلماته أشبه بنبوءة ..

نبوءة تنهى الفصل الأول من أسطورة طويلة خالدة ..

أسطورة خاصة ..

للغاية .

* * *

7ـ الميـــــدان ..

ارتسمت ابتسامة كبيرة ، على شفتَىْ رجل المخابرات المصرى (حسن) ، وهو يَلِف إلى حديقة منزل زميلـه (صـبرى) ، ويلوِّح له بيده ، قائلاً :

ـ حمدًا لله على سلامتكم يا صديقى .. أبلغونى أنك و(أدهم) عدتما من (موسكو) ، فأسرعت لألقى عليك التحية .

ابتسم (صبرى) بدوره ، وهو يقول :

ـ فقط ؟!

أطلق (حسن) ضحكة قصيرة ، وهو يجـذب مقعدًا ، ويجلس إلى جوار (صبرى) ، مجيبًا :

ـ إنه الفضول أيضًا يا صديقى العزيز .

ثم مال نحوه ، وسأله فى شغف شديد :

ـ هل كانت رحلته الميدانية الأولى ناجحة ؟

صمت (صبرى) بضع لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ من الناحية العملية .

تطلّع إليه (حسن) فى دهشة ، متسائلاً :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

أجابه ، بعد لحظة من التردُّد :

ـ لقد تورّط (أدهم) فى قتال غير مدروس ، مع المخابرات السوفيتية ، فى قلب (موسكو) .

هتف (حسن) فى انبهار :

ـ وتمكّن من العودة سالمًا ؟!

هزّ رأسه فى قوة ، ثم استدرك فى حماس :

ـ هذا رائع .. لقد واجه ابنك أشرس جهاز مخابرات فى العالم ، ونجح فى الإفلات منه .. أى نجاح يفوق هذا ؟!

هزّ (صبرى) رأسه بدوره ، وهو يقول فى حزم :

ـ جهاز المخابرات السوفيتى ، ليس أشرس جهاز مخابرات فى العالم ... والاتحاد السوفيتى نفسه ، مآله الانهيار فى النهاية .

غمغم (حسن) مستنكرًا :

ـ أى استنتاج عجيب هذا ؟!.. كيف يمكن أن تنهار دولة عظمى ، مثل الاتحاد السوفيتى ؟!

تنهّد (صبرى) ، مجيبًا :

ـ الاتحاد السوفيتى دولة بوليسية ، تعتمد فى بقائها ، بالدرجة الأولى ، على نظم أمن بوليسية قمعية عنيفة ، ذات سلطات واسعة ، تتجاوز حدود حرية المواطن العادى ، والتاريخ يؤكّد لنا ، أن الدول التى تحيا على هذا النحو ، يكون مصيرها الحتمى هو الانهيار ، طال الزمن أم قصر .

أدار (حسن) الجواب فى رأسه ، قبل أن يؤمن به ، قائلاً :

ـ تحليل منطقى للغاية يا صديقى .

غمغم (صبرى) :

ـ وربما تثبت الأيام القادمة صحته من عدمها .

قال (حسن) ، وهو يعتدل فى مقعده :

ـ بالتأكيد .. ولكن يبقى سؤال .. لو أن المخابرات السوفيتية ليست أكثر أجهزة المخابرات خطورة ، من وجهة نظرك ، فما هو الجهاز الذى يستحق هذه الصفة ؟.. المخابرات الأمريكية ؟

هزّ (صبرى) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ كلا .. الإسرائيلية .

انعقد حاجبا (حسن) فى ضيق ، وهو يقول :

ـ ولكننا كثيرًا ما تفوقنا عليها .

أشار (صبرى) بسبابته ، قائلاً :

ـ بالضبط .. ولكن هذا لا يمنع أنهم الأخطر ، ولم أقل الأقوى .. ربما لأنهم لا يعتمدون ولو لمحة من الأخلاقيات والقيم ، فى سبيل الفوز بأية مواجهة ، بل وحتى لا يؤمنون بها ، عندما يتعلق الأمر بالمكسب أو الخسارة ، وليس لديهم أدنى مانع ، من اللجوء إلى أقذر الوسائل ، إذا ما لزم الأمر .. وهذا ما يجعلهم الأخطر .

تطلع إليه (حسن) بضع لحظات فى صمت ، ثم تراجع ، ليسند ظهره على مقعده ، وهو يقول فى اهتمام :

ـ وهل تنوى دفع ابنك إلى مواجهتهم يومًا ؟

صمت (صبرى) لحظات ، قبل أن يجيب :

ـ ليس فى هذه المرحلة .

ولوهلة ، تصور (حسن) أنه سيكتفى بهذا القول ، إلا أنه لم يلبث أن استدرك فى حزم :

ـ أنا واثق من أنه سيصطدم بهم حتمًا ، لو مضت الأمور فى

مسارها الطبيعى ، وستكون بينه وبينهم صولات وجولات عنيفة ، وأنا أعده طوال الوقت لهذا الصدام ، ولكننى أعتقد أن الوقت لم يحن بعد لهذا ، فـ(أدهم) لم يبلغ ما تمنيته له بعد .

سأله (حسن) فى خفوت :

ـ ومتى سيبلغه فى رأيك ؟

صمت (صبرى) طويلاً هذه المرة ، وشرد ببصره بعيدًا ، قبل أن يجيب :

ـ من يدرى يا صديقى ؟!.. من يدرى ؟!

احترم (حسن) صمته ، وبقى ساكنًا فى مقعده ، يتطلع إليه بنظرة خاوية ، حتى خرج من شروده فجأة ، والتفت إليه قائلاً :

ـ بالمناسبة .. هناك شاب يقيم فى (موسكو) ، ويدرس الفن فى معاهدها ، ولكن الظروف جمعتنى به مصادفة ، وكشفت أنه أبرع مقلد رأته عيناى ، ولديه موهبة مدهشة ، فى هذا المضمار .

تمتم (حسن) :

ـ مقلد ؟!

ابتسم (صبرى) ، قائلاً :

ـ مزوّر ، لو أردت المزيد من الوضوح ، ولكن المهم أننى لا أؤمن بالمصادفات ، وأعتقد أنها مجرّد ترتيبات قدرية ، لتقودنا إلى ما فيه فائدتنا . وفائدة البلاد والعباد .

مال (حسن) نحوه ، يسأله فى اهتمام :

ـ ما الذى تريده بالضبط يا (صبرى) ؟

أجابه (صبرى) فى حزم :

ـ أريدك أن تجمع كل التحريات الممكنة عن ذلك الشاب ، وتتأكّد من خلوّ ملفه من أية تجاوزات أمنية أو قانونية

سأله (حسن) :

ـ ثم ماذا ؟

تطلّع إليه مباشرة ، وهو يجيب :

ـ ثم عليك أن ترسل إليه ترشيحًا رسميًا ، للعمل فى جهاز المخابرات العامة .

حدّق فيه (حسن) بمنتهى الدهشة والاستنكار ، قبل أن يهتف :

ـ مزوّر ؟!.. هل سنضم إلينا مزوّرًا يا (صبرى) ؟!

ابتسم (صبرى) ، وهو يقول :

ـ سيتحوّل إلى مزوّر محترف بكل الأحوال ، إما وهو يعمل لحسابنا ، وإما فى الحياة العامة ؛ لأنه يمتلك موهبة لا يمكنه مقاومتها ؛ لذا فالأفضل أن نتبنى نحن موهبته ، ونفيد منها إلى أقصى حد . ولا تنس أننا نحتاج كثيرًا إلى أوراق ، ومستندات ، وجوازات سفر ، وتصاريح ، وبطاقات شخصية . ووجود مزوّر محترف وموهوب بين صفوفنا ، سيمنحنا قوة لا بأس بها ، فى هذا المضمار .

ظلّ (حسن) يتطلّع إليه بضع لحظات فى صمت ، ثم لم يلبث أن ابتسم ، مغمغمًا :

ـ كم تبهرنى بنظرتك البعيدة للأمور يا (صبرى) !

ابتسم (صبرى) ، وغمغم :

ـ أرسل إليه الاستدعاء يا (حسن) .

أجابه فى حماس :

ـ سأفعل بالتأكيد ، فور انتهاء التحريات الرسمية .

وصمت لحظة ، ثم تساءل فى اهتمام شديد :

- ولكن أين (أدهم) ؟.. ألم يعد معك ؟

ابتسم (صبرى) ، مجيبًا :

- (أدهم) سبقنى إلى هنا ، ولقد جعلته يكتب تقريرًا بكل ما واجهه فى (موسكو) ، ثم قررت أن أنقله إلى مواجهة ميدانية جديدة .

سأله (حسن) فى اهتمام :

- إلى أين ستسافران هذه المرة ؟

صمت (صبرى) لحظات ، استعاد خلالها شروده ، قبل أن يقول :

- لن نسافر معًا هذه المرة .. (أدهم) يحتاج إلى الانتقال إلى مرحلة جديدة .. لقد سافر وحده فى رحلته الميدانية الجديدة ؛ فعليه أن يعتاد المواجهة منفردًا .

التقى حاجبا (حسن) ، وهو يتساءل :

- أليست هذه الخطوة سابقة لأوانها ؟

صمت (صبرى) بضع لحظات أخرى ، ثم قال فى حزم :

- كلا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (أدهم) الشاب يحاول الاسترخاء فى مقعده ، داخل الطائرة المصرية ، المتجهة

إلى (باريس) ، وهو يراجع فى ذهنه تلك الخريطة ، التى يصرّ والده على أن يحفظها عن ظهر قلب ، قبل أن يسافر إلى أية دولة ..

كانت نظرية (صبرى) أن رجل المخابرات الناجح ، لابد أن يفهم ميدان المواجهة جيدًا ، وأن يلم بكل طرقاته ومداخله ومخارجه ، قبل أن يضع قدميه فيه ؛ حتى لا تمكن مباغتته ، بأية حال من الأحوال ، تحت أية ظروف ..

وفى شىء من التوتر ، أغلق (أدهم) عينيه ، وراح يراجع الخريطة فى ذهنه ، و ...

وفجأة ، التقطت أذناه حديثًا هامسًا ، بين رجلين يجلسان فى المقعدين خلفه مباشرة ..

لم يكن من عادته أن ينصت إلى أحاديث الآخرين ، ولكن ما جذب انتباهه هذه المرة ، هو أن الحديث الهامس كان يدور بلغة ، أصرّ والده على تلقينه إياها ، منذ نعومة أظافره ..

بالعبرية ..

وكان مضمون الحديث بالغ الخطورة ..

إلى أقصى حد .

* * *

على الرغم من تظاهره بالنوم ، وإرهافه سمعه إلى أقصى حد ، لم يستطع (أدهم) أن يلتقط كافة تفاصيل ذلك الحديث الهامس ، بين الرجلين اللذين لم ير وجهيهما بعد ..

التقط فقط كلمات أوحت بخطورة الأمر ..

السفارة المصرية .. اغتيال .. وزير الخارجية .. مصر ..

وبسرعة ، راجع (أدهم) كل المعلومات ، التى طالعها فى الصحف ووسائل الإعلام ، فى الآونة الأخيرة ..

وفهم ما يعنيه الحديث ..

أو هذا ما خُيِّل إليه ..

هناك مؤامرة لاغتيال وزير الخارجية المصرى ، فى السفارة المصرية فى (باريس) ..

لقد أذاعت وسائل الإعلام ، ونشرت الصحف أن وزير الخارجية المصرى سيسافر إلى (باريس) ؛ لحضور مؤتمر وزراء خارجية دول البحر الأبيض المتوسط ، وأن مصر ستستغل ذلك المؤتمر ؛ لكسب التأييد الأوروبى ، من موقفها تجاه الصراع المصرى الإسرائيلى ، وضرورة تنفيذ قرار مجلس الأمن ، الذى يطالب إسرائيل بالانسحاب من (سيناء) ، ومن كل الأراضى التى احتلتها فى الخامس من يونيو ، عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين ..

ولأن الرجلين كانا يتحدثان بالعبرية ؛ فقد افترض (أدهم) أنهما منتميان لدولة (إسرائيل) ، التى ربما تسعى لاغتيال وزير الخارجية المصرى ، حتى تفسد المؤتمر ، وتبعد الأنظار عن أهدافه ..

وهذا أمر خطير ..

خطير للغاية ..

عندما توصّل إلى هذا الاستنتاج ، كان قائد الطائرة يعلن استعدادها للهبوط فى مطار (أورلى) فى (باريس) ، فنهض (أدهم) ، وتظاهر بالاطمئنان على حقيبته الوحيدة ، واختلس نظرة إلى الرجلين خلفه ..

نظرة واحدة ، نقلت مشاعره ، من الشك إلى اليقين ..

فالرجلان كانا يحملان ملامح يهودية واضحة ، ولقد رمقاه بنظرة صارمة متحفزة ، عندما التفت إليهما ، فأدار عينيه بعيدًا عنهما فى بساطة ، وعاد يجلس فى مقعده ، وهو يحفر ملامحهما فى ذهنه جيدًا ..

ومرة أخرى ، أغلق عينيه ، وهو يستعيد كلمات والده ..

« التزم بكل القواعد والقوانين يا (أدهم) ، ولا تتجاوزها ،

إلا فى حالة واحدة .. أن يكون فى هذا صالح (مصر) .. »

« (مصر) يا (أدهم) . (مصر) هى الأبقى ، وهى التى نمنحها حياتنا نفسها ، دون أن نتردّد لحظة واحدة .. ومن أجلها ، كل شىء يهون .. كل شىء .. بلا استثناء .. »

راح يستعيد تلك الكلمات مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

ولم يتوقّف ، حتى هبطت الطائرة فى (باريس) ، وبدأ بالفعل إجراءات دخول عاصمة النور والجمال والفن ..

وطوال الوقت ، كان يختلس النظر إلى الرجلين ، اللذين تحركا كأن كلاً منهما وصل منفردًا ، ولا علاقة له بالآخر ، حتى خرج الجميع من المطار ، فاستقل كل منهما سيارة تاكسى مختلفة ، ابتعدت بهما فى اتجاهين مختلفين ..

وبذاكرة فوتوجرافية مدهشة ، دوّن (أدهم) فى رأسه أرقام السيارتين ، وإن لم تشف ملامحه عن أدنى اهتمام ، وهو يستوقف سيارة ثالثة ، ويطلب منها أن تقلّه إلى فندق (ريتز) ، حيث يفترض أن يقيم ..

وفى طريقه إلى الفندق ، راح عقله يرسم خطة العمل ..

لم تكن لديه الخبرة اللازمة ، لوضع خطة محكمة ؛ لمواجهة عنيفة ، مع رجال المخابرات الإسرائيلية ، ولكنه حاول أن يدرس خطته البسيطة ، بأفضل وسيلة ممكنة ..

وعندما وصل إلى الفندق ، كان قد وضع الخطوط العريضة للخطة ..

وفور دخوله حجرته ، بدأ (أدهم) الشاب يتحرك بمنتهى السرعة والخفة والنشاط والحيوية ..

لقد أعدّ حقيبة صغيرة ، من أدوات بسيطة متوافرة فى حجرته ، وربط تلك الحقيبة على وسطه ، وارتدى قميصًا وسروالاً وسترة من اللون الأسود ، ثم غادر الفندق ، والشمس توشك على المغيب ..

وقبل أن تغلق المحال أبوابها ، دلف إلى متجر لألعاب الأطفال ، وابتاع لعبة بسيطة من البلاستيك ، أضافها إلى محتويات حقيبته الصغيرة ..

ثم حان دور البحث المنظّم ..

ولأنه يحفظ خريطة (باريس) عن ظهر قلب ، فقد استقلّ

مترو الأنفاق ، إلى محطة الوسط ، التى تتجمَّع عندها كل سيارات التاكسى ، بعد أن ينتهى عملها ..

كان يبدو غريبًا ، ملفتًا للانتباه ، وهو يسير وسط سيارات التاكسى ، والسائقين ، الذين راحوا يتطلَّعون إليه فى حذر قلق ، قبل أن يستوقفه أحدهم ، ويسأله فى صرامة :

ـ ماذا تفعل هنا أيها الصبى ؟

أجابه (أدهم) بفرنسية متقنة :

ـ معذرة يا عماه ، ولكننى أبحث عن سيارتين ، أشك فى أننى قد نسيت حقيبتى فى إحداهما .

رمقه الرجل بنظرة شك ، قبل أن يقول فى خشونة :

ـ ولماذا لا تسأل عن حقيبتك ، فى قسم المفقودات ؟

هزَّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً :

ـ ربما أفعل ، ولكن الواقع أننى فقدت قلادة صغيرة ، فى إحدى السيارتين ، ولمَّا كانت لها قيمة عاطفية كبيرة بالنسبة لى ، فقد أردت أن ...

استوقفه الرجل فى ضجر :

ـ فليكن .. أعطنى الرقمين ، وسأسأل سائقى السيارتين .

أملاه (أدهم) الرقمين ، فارتفع حاجبا الرجل فى دهشة ، وهو يقول :

ـ أأنت واثق من الرقمين ، أم إنك قد أخطأت فى حفظهما ، على نحو أو آخر ؟!

سأله (أدهم) فى اهتمام :

ـ ولماذا تفترض هذا ؟!

أشار الرجل بيده ، قائلاً :

ـ لأنه ليست لدينا سيارة تحمل أيًا من الرقمين ، ومن المستحيل أن تكون لدينا ؛ لأن سياراتنا كلها تحمل أرقامًا متسلسلة ، على نسق واحد ، وهذان الرقمان لا يمتَّان لأرقامنا بأدنى صلة .

وانعقد حاجبا (أدهم) الشاب فى شدة ..

فلقد كانت مفاجأة ..

كبيرة ..

* * *

بدا (صبرى) شديد القلق ، وهو يجرى اتصاله بحجرة (أدهم) ،

فى ذلك الفندق فى (باريس) للمرة الثالثة ، دون أية استجابة ، حتى وضع السماعة فى حنق ، فسأله (حسن) ، الذى لم يغادر بعد :

ـ ألم يُجب بعد ؟!

هزّ (صبرى) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ إنه ليس فى حجرته بالفندق ، والتوقيت متأخر الآن فى (باريس) ، والمحال التجارية هناك كلها أغلقت ، وستخلو الطرقات بعد قليل ، ولست أدرى ما الذى يفعله خارج فندقه ، فى هذه الساعة .

ابتسم (حسن) ، قائلاً :

ـ يتجول فى (باريس) بالتأكيد .. أنت تعرف ابنك أكثر منى .. لن يحتمل إضاعة لحظة واحدة فى حجرة مغلقة ، وأمامه (باريس) كلها ، على بُعد أمتار قليلة .. لو أنك فى موضعه ، لقضيت الليل كله فى استكشاف عاصمة النور .

انعقد حاجبا (صبرى) ، وهو يغمغم :

ـ طرقات (باريس) شديدة الخطر فى الليل .

أجابه فى حسم :

ـ ليس مع شاب مثل (أدهم) .

تنهّد (صبرى) مغمغمًا :

ـ ربما .

التقط نفسًا عميقًا ، فى محاولة لتهدئة أعصابه ، قبل أن يسأل (حسن) فى اهتمام شديد :

ـ قل لى .. هل تمت جميع إجراءات تأمين وزير الخارجية فى (باريس) ؟

أومأ (حسن) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ اطمئن .. سيادة الوزير سيقضى ليلته فى مبنى السفارة ، فى قلب العاصمة الفرنسية ، وفى الصباح ، سيصحبه ثلاثة من رجال الأمن المسلحين ، إلى مقر المؤتمر ، فى سيارة مصفّحة خاصة ، لا يمكن اقتحامها فى سهولة .

شرد (صبرى) ببصره مرة أخرى ، مغمغمًا :

ـ أتمنّى هذا .

ابتسم (حسن) ، وهو يسأله :

ـ ألا تطمئن أبدًا لنظم الأمن ؟!

أجابه (صبرى) فى رصانة حاسمة :

ـ إننى واثق من أن الجميع قد درس نظام الأمن ، على أدق وأكمل صورة ممكنة ، وأن كل الإجراءات التأمينية سيتم اتباعها على أكمل وجه ، ولكن هناك قاعدة ، أحرص دومًا على تلقينها لـ (أدهم) ، من شدة إيمانى بها .

غمغم (حسن) فى اهتمام :

ـ وهى ؟

أشار (صبرى) بسبابته ، مجيبًا :

ـ كل نظام أمنى ، مهما بلغت دقته ، أو بلغ إحكامه ، يحوى حتمًا ثغرةً ما .. ثغرة صغيرة للغاية ، لم ينتبه إليها أحد ، أو ربما لم يشعر بأهميتها أحد ، ولكن لو أنك درست نظام الأمن بدقة ، فستعثر عليها ، وعندئذ ، لن يكون من العسير أن تنفذ منها .

تمتم (حسن) فى توتر ، وقد بدأت ثقته تهتز :

ـ مجردُ نظرية .

هزَّ (صبرى) رأسه ، قائلاً فى حزم :

ـ بل حقيقة يا صديقى .. حقيقة تمثِّل أهم ما فى عالمنا .. جد الثغرة ، وستربح المعركة .. حتمًا .

وتضاعف قلق (حسن) على الرغم من أنه لم يكن يدرك ، كم هى قاعدة صحيحة ، فى هذه العملية بالذات ..

فخطة تأمين الوزير ، كانت تحوى بالفعل ثغرة ..

ثغرة كبيرة ..

وخطيرة .

* * *

8- الثغـــرة ..

بدا الرجلان ، اللذان استمع (أدهم) لحديثهما فى الطائرة ، متوترَيْن على نحو واضح ، وهما يجلسان داخل منزل آمن ، يتبع المخابرات الإسرائيلية ، فى قلب (باريس) ، وتطلّع أحدهما إلى ساعة الحائط ، قبل أن يقول :

- هل سننتظر طويلاً ؟!

أجابه زميله فى خفوت :

- تحمّل يا (دافيد) .. القائد سيصل ، عندما تناسبه الظروف .

غمغم (دافيد) فى عصبية :

- بالتأكيد .

لم يكد ينتهى من غمغمته ، حتى انفتح باب المنزل الآمن ، ودلف قائدهما (إليعازر) ، وهو يقول ، فى لهجة قاسية صارمة :

- فيم تتحدثان ؟

نهض الرجلان فى احترام شديد ، وقال (دافيد) فى توتر :

- لا شيء يا أدون (إليعازر) .. كنا نقطع الوقت بالحديث فحسب .

رمقه (إليعازر) بنظرة صارمة ، ثم أدار عينيه إلى الآخر ، قائلاً :

- هل راجعتما الخطة يا (كاهان) ؟

غمغم (كاهان) :

- كنا ننتظر وصولك أيها القائد .

مطّ شفتيه ، وكأنما لا يروق له هذا ، ثم اتجه إلى منتصف صالة المنزل ، وانتقى مقعدًا وثيرًا ، وجلس قائلاً :

- هل راجع أحدكما نظام الأمن ، الذى سيتّبعه المصريون ؛ لتأمين وزيرهم ؟

قال (دافيد) فى سرعة :

- لقد ناقشنا الأمر فى الطائرة ، و ...

قاطعه (إليعازر) فى غضب هادر :

- فى الطائرة .. هل ناقشتما خطة بهذه الخطورة ، فى الطائرة ؟!.. أهذا ما تدربتما عليه ، ودرستماه عن وسائل الأمن ونظمه ؟!

امتقع وجه (دافيد) فى شدة ، فى حين قال (كاهان) فى ارتباك :

- لم يكن هناك حولنا ، سوى شاب صغير ، و ...

قاطعه (إليعازر) مرة أخرى ، بصيحة هادرة :

ـ أهذا ما تعلمتماه ؟!

تبادل الرجلان نظرة شديدة التوتر ، ولاذا بالصمت ، فالتقط هو سماعة الهاتف ، قائلاً فى صرامة :

ـ مهما بدا لكما الأمر تافهًا ، فقد اعتدت ألا أترك أى شىء للمصادفات ، مهما بدا تافهًا .. أخبرانى برقمى مقعديكما فى الطائرة ، وسنرى من ذلك الشاب ، الذى كان قريبًا منكما بالضبط .

أجرى اتصاله الهاتفى ، بعد أن أبلغاه الرقمين ، ثم أنهى المحادثة ، قائلاً بنفس الصرامة :

ـ ستصلنا المعلومات بعد نصف الساعة .

غمغم (كاهان) :

ـ أدون (إليعازر) .. إننا لم نقصد أن ...

قاطعه فى غلظة :

ـ لن نضيع الوقت فى هذه النقطة .. سننتقل فورًا إلى الخطة .

تنحنح (دافيد) ، وقال :

ـ معذرة يا أدون (إليعازر) ، ولكننا درسنا الموقف كله ، ولم

ندرك بعد ، كيف يمكننا اغتيال وزير الخارجية المصرى ، مع كل استحكامات الأمن الشديدة هذه .

انعقد حاجبا (إليعازر) ، وهبَّ من مقعده ، وهو يقول فى غضب :

ـ أغبياء !

انزعجا بشدة لغضبه ، ولكنه اتجه نحوهما فى شراسة ، وهو يتابع بنفس اللهجة :

ـ لو أنكما درستما الأمر ، بنية مهاجمة السيارة المصفحة الخاصة ، التى سيستقلها الوزير المصرى ، مع رجال الأمن الثلاثة ، فستبدو لكم المهمة مستحيلة تمامًا ، وهذا لأنكما لم تنتبها إلى الثغرة الكبرى ، فى تلك الخطة الأمنية .

سأله (دافيد) ، فى صوت خافت متوتر :

ـ وأين تلك الثغرة ؟

أشار (إليعازر) بسبابته ، مجيبًا :

ـ السفارة .. الوزير سيقضى ليلته فى السفارة المصرية ، وهى مبنى عادى ، لا يحوى سوى نظم الأمن التقليدية ، ومن الممكن مهاجمته واقتحامه ، لو أن لدينا القوة المناسبة .

امتُقع وجه (كاهان) ، وهو يقول :

ـ نهاجم السفارة المصرية ؟!.. هذا يبدو لي بالغ الخطورة ، وعواقبه لا يمكن التنبؤ بها ، على الرغم من حالة الحرب بين دولتينا .

مطَّ (إليعازر) شفتيه ، قائلاً :

ـ هذا لو أننا هاجمناها ، باعتبارنا فريقًا إسرائيليًا ، ولكن فريق الكوماندوز ، الذي استدعيته من (تل أبيب) ، والذي وصل (باريس) منذ ساعة واحدة ؛ لتقوداه في مهمة الاقتحام ، سيرتدي أفراده الهجوم تلك الوشاح الفلسطيني ، ذي اللونين الأبيض والأسود ، وسيكون معظمه من المستعربين(*) ، الذين سيتحدثون باللهجة الفلسطينية طوال الوقت ، وسيحرص أحدهم على ترك وشاحه خلفه ، بعد انتهاء المهمة ، كدليل على هوية مرتكبي الاقتحام والاغتيال .

تبادل (دافيد) و(كاهان) نظرة متوترة ، ثم قال الأول :

ـ بقيت نقطة شديدة الأهمية أيها القائد .. ما مبرر هجوم الفلسطينيين على السفارة المصرية ، واغتيال وزير الخارجية ، على الرغم من أن (مصر) هي السند الأول للفلسطينيين ، منذ حرب ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين ؟!

(*) المستعربون : فرقة خاصة ، في المخابرات الإسرائيلية ، يحمل كل أفرادها ملامح عربية شرقية ، ويتحدثون بلهجة فلسطينية صرفة ، بحيث يمكنهم أن يتسللوا إلى قلب الكيان الفلسطيني ، لتنفيذ عمليات تحطيم الروح المعنوية الداخلية ، أو اغتيال القيادات الفلسطينية .

أجابه (إليعازر) في حزم :

ـ سيقولون إنهم يَنقضون موقف (السادات) ، الذي وضع (مصر) في حلقة اللاسلم واللاحرب ، وإنهم يشعرون أنه قد تخلَّى عن فكرة الحرب مع (إسرائيل) تمامًا ، ولم تعد تعنيه سوى الوسائل الدبلوماسية .

سأله (كاهان) في حذر :

ـ ولمن سيقولون هذا ؟

أجابه في سرعة :

ـ في بيان ستتلقاه كل وكالات الأنباء ، عقب الهجوم مباشرة ، بتوقيع منظمة التحرير الفلسطينية .

صمت الرجلان لحظة ، قبل أن يهتف (دافيد) :

ـ خطة عبقرية أيها القائد !

زمجر (إليعازر) ، وكأنما يعلن عدم رضاه ، وقال بمنتهى الصرامة :

ـ استعد إذن للهجوم .. سنلتقي بالكوماندوز المستعربين ، عند قوس النصر ، ونهاجم السفارة المصرية ، مع أول ضوء من الفجر .

لم يكد ينتهى من عبارته ، حتى ارتفع رنين الهاتف ، فالتقط سمّاعته فى سرعة ، ووضعها على أذنه ، دون أن ينبس ببنت شفة ، واستمع فى اهتمام ، قبل أن يحتقن وجهه فى غضب ، وينهى المكالمة ، قائلاً :

ـ أيها الغبيان .. الشاب الذى كان يجلس أمامكما مصرى ، ولو أنه سمع أو فهم ما قلتماه ، فهذا يعنى أن الخطة كلها معرَّضة للفشل .

تمتم (كاهان) فى ذعر :

ـ ولكننا كنا نتحدَّث بالعبرية .

صاح به (إليعازر) :

ـ ومن أدراك أنه لا يجيدها .

لم يجد أى من الرجلين جوابًا ، فالتقط هو سمّاعة الهاتف مرة أخرى ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

ـ ثم إننى لم أعتد ترك أية ثغرة ، أو أى احتمال خلفى .

انتظر لحظات ، حتى سمع صوت محدثه ، فقال فى صرامة :

ـ (ماير) .. هناك بوق ، لابد من إسكاته الليلة ، قبل مطلع الفجر .. بوق مصرى ، يدعى (أدهم) .. (أدهم صبرى) .

ومرة أخرى ، لم ينبس (دافيد) أو (كاهان) ببنت شفة .. على الإطلاق ..

* * *

لم يدر (أدهم) ماذا يفعل بالضبط ، بعد أن فقد أثر سيارتى التاكسى الزائفتين ، ولم يعد يعلم أين يجد الرجلين بالضبط ..

كان واثقًا ، وفقًا لما لقَّنه إياه والده ، أنهما لن يتجها إلى أى مكان ، يحمل صفة رسمية إسرائيلية ..

هناك حتمًا منزل آمن ، فى مكان ما ..

منزل لا يمكنه أن يصل إليه ، وهو يفتقر إلى أية معلومات ؛ فحتمًا لم يسافر الرجلان باسمهما الحقيقى ، ولن يتركا خلفهما أى أثر ..

الأمور تعقَّدت بشدة إذن ، وهو حائر فيما ينبغى أن يفعل !..

هل يبلغ السفارة المصرية بما لديه ؟!..

هل يحاول إقناعهم بما سمعه فى الطائرة ؟!.. أم إنه سيصعب عليهم تصديق شاب مثله ، واتخاذ إجراءات أمنية خاصة ، دون دليل ملموس ؟!

راح يدير الأمر فى رأسه ، وفكَّر فى أن يذهب إلى السفارة ، ويخبرهم بهويته ووظيفة والده ، ولكنه خشى أن يفسد هذا الغرض من رحلته الميدانية المنفردة ، أو يسىء إلى والده ، على نحو أو آخر ..

شعر بمخه يكاد يغلى فى رأسه ، وهو يسير فى طرقات (باريس) المظلمة ، فقرَّر أن يعود إلى حجرته بالفندق ، ويحصل على قدر من الراحة ، حتى يمكنه أن يعيد دراسة الموقف كله بذهن صافٍ ، و ...

« حافظتك أو حياتك .. »

انتزعته العبارة ، التى قيلت بصرامة وحشية ، من أفكاره ، وبدت له لهجة صاحبها مختلطة ، وليست باريسية صرفة ، فرفع عينيه ، ليجد ثلاثة رجال أشداء ، ضخام الجثة ، يحيطون به فى إحكام ، وكل منهم يحمل مُدْية حادة ، وعيونهم تنطق بمعنى واحد ..

أن حياته فى خطر ..

خطر رهيب .

* * *

تثاءب موظف شركة الطيران فى إرهاق ، وهو يتطلَّع إلى ملامح (ماير) ، قائلاً فى ضجر :

ـ آسف يا سيِّدى .. سياسة الشركة تعتمد على خصوصية الركاب ، ولا يمكننى أن أخبرك شيئاً ، عن بيانات ذلك السيِّد (أدهم صبرى) .

تجاهل (ماير) اعتراضه ، وهو يسأله فى برود :

ـ هل قامت الشركة بحجز الفندق ، الذى سيقيم فيه ؟

هزَّ الرجل رأسه ، قائلاً فى حزم :

ـ لا يمكننى أن أخبرك .

ابتسم (ماير) ابتسامة مخيفة ، وهو يقول :

ـ فى هذه الحالة ، ستضطرنى إلى حقنك بمصل الحقيقة .

حاول الرجل أن يبتسم فى استخفاف ، قائلاً :

ـ ذلك المصل لم يعد يستخدم ، منذ ...

قبل أن يتم عبارته ، استلَّ (ماير) مسدساً ضخماً من حزامه ، زادت ضخامته بكاتم الصوت ، المثبت فى فوهته ، ووثب فى خفة عبر الحاجز ، الذى يفصله عن موظف الطيران ، ودفع هذا الأخير

فى قسوة نحو الجدار ، وألصق فوهة كاتم الصوت بجبهته ، وجذب إبرة المسدس ، قائلاً فى لهجة شرسة :

ـ هذا هو المصل الوحيد ، الذى أؤمن به أيها الحقير ، وعليك أن تختار بسرعة ، فلست أتميزُ بالصبر .. هل ستخبرنى كل ما أريد معرفته ، عن ذلك المدعو (أدهم صبرى) ، أم أحقنك به ، فى منتصف جبهتك تماماً ؟!

امتقع وجه الموظف المسكين بشدة ، واتسعت عيناه بمنتهى الرعب ، وهو يهتف فى ارتياع :

ـ ما الذى تريد معرفته ؟!.. سأخبرك بكل شىء .. كل شىء .

ابتسم (ماير) فى شراسة ، قائلاً :

ـ أرأيت كم يفيد هذا المصل .

واتسعت ابتسامته الشرسة ، وبدت جدُ بغيضة ..

إلى أقصى حد ..

* * *

أى شخص يواجه ثلاثة عمالقة أشداء ، فى ليل (باريس) ، سينهار على الفور ، وخاصة عندما يبلغ حجمه نصف حجم أقلّهم ..

ولكن (أدهم) الشاب تربّى على نحو مختلف ..

« الضخامة ليست وسيلة للفوز يا (أدهم) .. فالفيل شديد الضخامة ، ولكن نقاط ضعفه بقدر حجمه .. المهم هو الشجاعة ، والخفة ، وحسن تقدير الأمور .. »

استعاد (أدهم) كلمات والده ، وهو يدير بصره فى الرجال الثلاثة ، ومدياتهم المشهورة بتحفّز فى وجهه ، ثم لم يلبث أنْ عقد ساعديه أمام صدره ، وهو يقول فى هدوء عجيب :

ـ وماذا لو أننى رفضت إعطاءكم حافظتى ؟!

أطلّ غضب شديد ، من عيون ثلاثتهم ، وتقدّم أضخمهم منه فى شراسة ، ولوّح بمديته فى وجهه ، قائلاً :

ـ إذن ستعطينا حياتك !

لم يكد الرجل يتم عبارته ، حتى انطلق (أدهم) كالعاصفة ..

لقد تعلّق بذراع الرجل الذى لوّح بمديته فى وجهه ، ووثب يركل أنف الثانى ، ثم دار فى الهواء ؛ ليركل الثالث ، فى أسنانه مباشرة ، وبعدها هبط على قدميه ، وهو يلوى ذراع الأول فى قوة ، أجبرته على إفلات مديته ، وهو يصرخ :

ـ أيها الـ ...

قبل أن يتم صرخته ، تلقّى لكمة عنيفة فى أنفه ، وثانية فى

عنقه ، وثالثة فى أسنانه ، فسقط على ركبتيه ، وهو يسعل بشدة ، ويمسك عنقه بكفيه ، وأنفه ينزف فى غزارة ..

وفى غضب ، هبّ الثانى والثالث لقتال (أدهم) ، ولكنه انزلق فى خفة مدهشة ، بين ساقى الثانى ، وقفز ليركله فى مؤخرته بقوة ، دفعته ليرتطم بالثالث ، ويسقطان معًا أرضًا .

وقبل أن ينهضا ، تلقّى الثانى ركلة فى مؤخرة عنقه ، وشعر الثالث بمطرقة تهوى على أنفه ، وجانبى عنقه ، وبين عينيه ..

ولم يستغرق الأمر سوى لحظات قليلة ، لينتهى بالعمالقة الثلاثة على أرض (باريس) ، و(أدهم) الشاب يعدّل ثيابه ، قائلاً :

ـ كم أبغض اللجوء إلى العنف !

ثم دسّ يديه فى جيبَىْ سرواله الأسود ، وواصل طريقه فى هدوء عجيب ، وهو يطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا ، بدا متناسبًا تمامًا مع (باريس) ..

وليل (باريس) ..

* * *

استقبل المدير الليلى لفندق (ريتز) قاتل الموساد (ماير)

بابتسامة كبيرة مرحِّبة ، وهو يقول :

ـ مرحبًا بك فى (باريس) يا سيِّدى .. هل ترغب فى حجز واحدة من حجراتنا الفاخرة ؟

أجابه (ماير) ببروده التقليدى :

ـ فى مناسبة أخرى .. الآن أبحث عن رقم حجرة شاب مصرى ، يُدعى (أدهم صبرى) .

التقى حاجبا المدير الليلى ، وهو يقول :

ـ أأنت أحد أقاربه يا سيِّدى ؟!

أجابه (ماير) :

ـ كلا .. ولست أريده أن يعرف أننى هنا ؛ فمن الضرورى أن أباغته .

تطلّع إليه المدير الليلى ، فى شكّ حذر ، قبل أن يقول :

ـ معذرة يا سيِّدى ، ولكن سياسة الفندق ..

قاطعه (ماير) فى حنق :

ـ السياسة مرة أخرى ؟!.. كم أبغض هذا !

وتلفت حوله ؛ ليطمئن إلى أن أحداً لا يلاحظه ، ثم جذب المدير الليلى فى خشونة نحو مكتبه ، قائلاً :

ـ ولكننى ، وفى كل الأحوال ، أفضّل أن نتحدث على انفراد .

أراد الرجل أن يصرخ مستنجدًا ، ولكن (ماير) دفعه داخل حجرة مكتبه ، واستلّ مسدسه ، قائلاً فى خشونة قاسية :

ـ والآن .. هل ستجبرنى على استخدامه ؟!

هتف الرجل بصوت مختنق :

ـ سأخبرك ما تريد يا سيّدى .. سأخبرك ما تريد .

وبيد مرتجفة ، التقط دفتر النزلاء ، وراجعه فى ذعر ، قبل أن يقول :

ـ السيّد (أدهم صبرى) يقيم فى حجرة رقم ثلثمائة وستة ، فى الطابق الثالث .

سأله (ماير) فى صرامة :

ـ لديك المفتاح (الماستر) ، الذى يفتح كل الأبواب .. أليس كذلك ؟!

ناوله الرجل المفتاح ، وهو يقول فى رعب :

ـ لقد نفذت كل ما طلبته يا سيّدى .. اتركنى .. أرجوك !

قال (ماير) فى حدة :

ـ لا تتوسل .. إننى أبغض المتوسلين .

انحدرت دمعة ذعر ، من عينى الرجل ، فخفض (ماير) فوهة مسدسه ، وهو يقول فى هدوء :

ـ وربما يمكننى أن أتركك تحيا .

تنفس الرجل الصُعداء ، ولكن (ماير) رفع فوهة مسدسه مرة أخرى ، فى حركة حادة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ ولكن هذا سيفسد خطتى .. لذا ...

ودون أن يتم عبارته ، أطلق من كاتم الصوت رصاصة صامتة ، أصدرت صوت فرقعة مخيفة ، وهى تخترق جبهة المدير الليلى المسكين ..

وفى هدوء ، دسّ (ماير) مسدسه الضخم فى حزامه ، واتجه نحو حجرة (أدهم) ..

فتح الباب فى حذر ، ثم وثب إلى الداخل ، وهو يصوّب مسدسه ، ولكنه أدرك على الفور أن الحجرة خالية ، فتمتم فى

امتعاض :

ـ المصرى الشاب جذبه ليل (باريس) .

ثم اتجه نحو مقعد مواجه للباب ، وجلس عليه ، مستطردًا :

ـ ولكنه سيعود حتمًا .. وعندئذ ...

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (أدهم) الشاب قد عاد إلى الفندق ، واستعاد مفتاحه من موظف الاستقبال ، ثم استقلّ المصعد ، إلى الطابق الذى يقيم فيه ..

كان ذهنه منشغلاً تمامًا بتلك المشكلة العويصة ..

لا يمكنه أن يسمح للإسرائيليين ، باغتيال وزير الخارجية المصرى .

ولا يمكنه أن يبلغ أمن السفارة ، فى الوقت ذاته ..

ربما كان الحل الأفضل هو أن يبلغ والده ..

ربما ..

فبحكم منصب والده وموقعه ، ستكون له مصداقية كبيرة ، عندما يجرى اتصاله برجال أمن السفارة ، ويبلغهم ما لديه ..

نعم .. هذا هو الحل الأفضل ..

والأمثل ..

تملّكه الحماس ، عندما بلغ بتفكيره هذه النقطة ، فعاد يطلق من بين شفتيه ذلك الصفير المنغوم ، قبل أن ينتبه إلى هدوء الفندق الشديد ، فتوقّف ، وابتسم مغمغمًا :

ـ ينبغى أن أعتاد هذا المناخ المختلف .

قالها ، وأخرج مفتاح حجرته ، وألقى نظرة على رقم الثلثمائة وستة ، قبل أن يدس المفتاح فى الباب ، ويديره ..

ومع صوت المفتاح ، انتبه (ماير) وتحفّز ، واعتدل فى مقعده ، وصوّب فوهة مسدسه إلى الباب ..

وعندما شاهد الباب ينفتح ، جذب إبرة المسدس ..

وأطلق النار .

* * *

9ـ القـاتـل ..

على الرغم من ثقة (صبرى) الشديدة ، فى أنه قد بذل كل ما فى وسعه ، لتربية ابنه ، وتدريبه ، وتلقينه فن المواجهة ، وإعداده لما يتمناه له فى المستقبل ، إلا أن مشاعره كأب ، لم تساعده على الصبر طويلاً ، أو منع ذلك القلق العارم ، الذى امتلأت به نفسه ، وهو ينظر فى ساعته ، مغمغمًا ، فى شىء من العصبية :

ـ كيف لم يعد إلى حجرته ، حتى هذه اللحظة ؟!

حاول (حسن) أن يبتسم مطمْئنًا زميله ، إلا أن ذلك القلق ، الذى بدأ يتسلل بالفعل إلى قلبه ، جعله يقول ، فى شىء من التوتر :

ـ إنها ليلته الأولى فى (باريس) .

أجابه (صبرى) ، وهو يزفر فى عصبية :

ـ كانت ساعاته الأولى فى (موسكو) ، عندما بدأ صراعه مع أحد أشرس أجهزة المخابرات فى العالم .

حاول (حسن) أن يقول شيئًا .. أى شىء ، إلا أنه عجز عن

هذا تمامًا ، وهو يمد يده ، ويربِّت على كتف صديقه وزميله فى صمت ، إلا أن ارتجافة القلق فى أصابعه بلغت إحساس (صبرى) ، فالتقط سمَّاعة الهاتف مرة أخرى ، مغمغمًا :

ـ سأحاول الاتصال به مرة أخرى .

قال (حسن) فى صوت أجشّ ، من فرْط الانفعال :

ـ ولماذا تقلق نفسك إلى هذا الحد ؟!.. هل تتصوَّر أنه حتى ولو كان فى خطر ، ستنقذه مكالمتك هذه ؟!

تمتم (صبرى) ، وهو يدير قرص الهاتف :

ـ من يدرى ؟!

لم يتخيَّل كم كانت عبارته أشبه بالنبوءة ..

فحقًّا .. من يدرى ؟!..

* * *

توقيت مذهل ، ذلك الذى حدث فى تلك اللحظة الرهيبة ، فى حجرة (أدهم) الشاب ، فى فندق (ريتز) ، فى قلب (باريس) ..

فدون أن ينتبه إلى ما يدبَّر له ، اتجه (أدهم) إلى حجرته فى بساطة ، وذهنه شارد فى البحث عن الوسيلة المثلى ، لتحذير

السفارة المصرية فى (باريس) ، من تلك المؤامرة الإسرائيلية ، التى سمعها بالمصادفة ، والتى تستهدف اغتيال وزير الخارجية المصرى ؛ لمنعه من حضور مؤتمر دول البحر الأبيض المتوسّط ، على الرغم من أنه يجهل تمامًا متى وكيف ستتم عملية الاغتيال بالتحديد ..

وداخل الحجرة ، ومستترًا بالظلام التام ، إلا من خيط ضوء فضى رفيع يتسلّل من نور القمر ، عبر فرجة صغيرة فى النافذة ، كان يجلس قاتل الموساد الشرس (ماير) ، ممسكًا مسدسه فى تحفّز ؛ لإطلاق النار على رأس (أدهم) ، فور دخوله ..

وفتح (أدهم) باب الحجرة ، وهم بالدخول ، وصوّب (ماير) مسدسه فى إحكام ، و ...

وفجأة ، انطلق رنين جرس التليفون فى الحجرة ..

وفى اللحظة نفسها ، ضغط (ماير) زناد مسدسه ..

ومع رنين التليفون ، تحرك (أدهم) بسرعة نسبية ؛ ليرد على المكالمة ، التى استنتج فورًا أنها واردة من والده فى (القاهرة) ..

ومع حركته المفاجئة ، أصابت رصاصة (ماير) باب الحجرة ، على قيد سنتيمتر واحد من رأسه ..

كانت أوّل مرة ، يخطئ فيها (ماير) إصابة الهدف ، فى حياته العملية كلها ؛ لذا فقد هتف فى سخط ، وهو يصوّب مسدسه مرة أخرى :

ـ اللعنة !

ولكن سرعة الاستجابة المدهشة ، التى اكتسبها (أدهم) ، من تدريباته المستمرة ، عبر سنوات طوال ، بدأت مع نعومة أظفاره ، أثبتت بُعد نظر (صبرى) ، فى تلك اللحظة بالتحديد ..

لقد تراجع فى سرعة خرافية ، وقد استوعب الموقف كله ، وجذب باب الحجرة معه ، ليعيد إغلاقه فى عنف ، وأزاح رأسه جانبًا ، فى نفس اللحظة التى اخترقت الباب فيها رصاصتان ، من رصاصات (ماير) ..

وبينما ينطلق مبتعدًا ، بأقصى سرعته ، عبر ممر الفندق ، أدرك (أدهم) أن أمره قد انكشف على نحو ما ، وأن الإسرائيليين قد أدركوا أنه قد استمع إلى خطتهم ، وصار نقطة خطر بالنسبة لهم ، ومن المحتّم التخلص منه ..

وبمنتهى العنف ..

أما (ماير) ، فقد شعر بغضب عنيف ، يستعر فى أعماقه ، وهو يثب من المقعد ، ويندفع بدوره خلف (أدهم) ، وقد هاله أن يعجز عن تنفيذ مهمته ، من اللحظة الأولى ، كما اعتاد دومًا ..

وكما اعتاد رؤساؤه فى (الموساد) ..

لذا ؛ فقد انطلق خلف (أدهم) ، فى ممر الفندق ، وهو يلوّح بمسدسه ، ولكن (أدهم) ، الذى لم يستطع انتظار المصعد ، وثب نحو باب السلم الخلفى للفندق ، محاولاً الفرار من رصاصات (ماير) ، التى أصابت الجدار ، والمصعد ، قبل أن يندفع (أدهم) إلى السلم الخلفى ، فهتف (ماير) فى غضب :

ـ لن تفلت منى أبدًا أيها الصبى العنيد !

اقتحم مدخل السلم الخلفى للفندق بدوره ، وهو يُشهر مسدسه فى تحفّز ، وشراسة الدنيا كلها تطلّ من عينيه ، و ...

وتوقّف دفعة واحدة ..

فعلى الرغم من امتداد السلالم الخلفية لثلاثة أدوار سفلية على الأقل ، لم يكن هناك أثر لـ(أدهم) !!..

وفى عصبية ، رفع (ماير) عينيه إلى أعلى ، بحثًا عن محاولة فرار علوية ، ولكن السلالم العلوية كانت خالية أيضًا ..

خالية تمامًا !..

وفى توتر غاضب ، تلفّت (ماير) حوله ، ولوّح بمسدسه يمينًا ويسارًا ، وقبل أن يرفع عينيه إلى أعلى ، انقضّ عليه (أدهم) الشاب ..

كان يتعلّق بالحاجز العلوى للمدخل ، ويعتمد على قوة ساقيه وذراعيه ، للتشبث بزاوية السقف والجدار ؛ لذا لم يره قاتل (الموساد) ، من زاوية اقتحامه للسلالم الخلفية ..

وكانت الانقضاضة مباغتة ..

مباغتة للغاية ..

ومع عنف الانقضاضة ، وعامل المفاجأة ، سقط (ماير) أرضًا ، وطار مسدسه من يده ، ليزحف أرضًا ، حتى ارتطم بالجدار ، وارتد لنصف متر على الأقل ، فى نفس الوقت الذى كال له (أدهم) فيه لكمة قوية فى فكه ، وأخرى فى أنفه ..

ولكن تلك اللكمة الأخيرة لم تكتمل ..

لقد تحركت يد (ماير) فى سرعة مدهشة ، ليتلقى قبضة (أدهم) فى راحته ، وهو يقول فى صرامة غاضبة :

ـ لست أدرى كيف ومتى تعلّمت كل هذا أيها الصبى ، ولكنك لم تبلغ بعد نصف قدرات (ماير) .

قالها ، وهو يثب واقفًا بحركة بالغة النشاط والمرونة ، ويلقى (أدهم) بعيدًا عنه ، ثم ينقضّ عليه ..

كان بالفعل أكثر قوة ومرونة من (أدهم) ، بحكم خبراته

الطويلة ، وسنوات صراعه الوحشية ، وتدريبات أيام الكوماندوز وفرقة التصفية والاغتيالات ..

ولقد أدرك (أدهم) على الفور ، أن قتالاً مباشرًا قد ينحسم لصالح خصمه ..

لابد إذن من خطة قتال ذكية ..

وخبيثة ..

وسريعة ..

« الهجوم خير وسيلة للدفاع يا (أدهم) .. ابحث فى خصمك عن نفس الثغرة ، التي ينبغي أن تبحث عنها في أى نظام لمن تواجهه .. الثغرة يا (أدهم) هي المدخل المباشر للفوز .. دائمًا » ..

استعاد عقله كلمات والده ، فى جزء من الثانية ، و(ماير) ينقض عليه مرة أخرى ، فى شراسة ووحشية أكثر .

كان رجلاً ضخم الجثة ، عريض المنكبين ، اعتاد القتال والصراع ، واعتاد أكثر أن يخضع خصمه بصرخات وحشية ، ونظرات مخيفة ..

ومن المؤكد أنه ، فى كل انقضاضاته ، كان يعتمد اعتمادًا مباشرًا على ما يصيب خصمه ، وعلى الجمود الذى يكتنفه فى مواجهته ..

لذا ؛ فقد تحرك (أدهم) بأقصى سرعة وخفة ، متفاديًا انقضاضة قتل (الموساد) العملاق ، ووثب محاولاً التقاط سلاح هذا الأخير ..

ولكن ظهره تلقى ركلة بالغة العنف ، دفعته مترين كاملين إلى الأمام ، ليرتطم بحاجز السلم فى عنف ، وعندما استدار ليواصل القتال ، فوجئ بفوهة مسدس (ماير) ، المزودة بكاتم للصوت ، مصوبة إلى رأسه مباشرة ، وخلفها وجه (ماير) الوحشى ، وهو يقول فى شراسة :

- أخبرتك أنك لن تبلغ نصف إمكانياتي أيها الصبى !

وبابتسامة شامتة وحشية ، ضغط زناد مسدسه ، وفوهته مصوبة نحو جبهة (أدهم) ..

تمامًا ..

* * *

على الرغم من أن عقارب الساعة قد تجاوزت منتصف الليل ، إلا أن مجموعة من السيارات الفرنسية الصغيرة الخاصة ، توقفت فى أماكن مختلفة متباعدة ، حول منطقة قوس النصر فى (باريس) ، وهبط من كل سيارة رجلان ، يرتديان ثيابًا عادية بسيطة ، من طراز مألوف ، يميل إلى الشرقية ، منه إلى الأوروبية ، ويحمل كل منهم فى يده حقيبة صغيرة من القماش ..

ومن اتجاهات مختلفة ، أتى الرجال ، ليتجمّعوا تحت قوس النصر ، دون أن يتبادلوا كلمة واحدة ، مع بعضهم البعض ، بل حرصوا أشدّ الحرص على أن تبدو هيئتهم ، وكأنّهم مجموعة من السائحين ، يتجوّلون فى ليل (باريس) الساحر ..

وفى توقيت دقيق ، وبخطة مدروسة بعناية فائقة ، وصلت سيّارة (فان) إلى المنطقة ، يقودها سائق ضخم الجثة ، يبدو أشبه بمصارع ، منه بسائق سيارة ، وإلى جواره جلس رجل حاد الملامح ، واضح الذكاء ..

رجل يدعى (إليعازر) ..

وبإشارة واحدة منه ، اتجه الرجال كلهم إلى السيارة ، التى فتح (كاهان) صندوقها الخلفى ، ليظهر هو و(دافيد) ، وبينهما كومة من الأسلحة والأدوات ..

وبدون تبادل كلمة واحدة ، قفز الرجال داخل الفان ، وما إن اكتمل عددهم ، حتى انطلقت بهم السيارة ، نحو وجهةٍ تم تحديدها مسبقًا ..

نحو مبنى السفارة المصرية ..

مباشرة .

* * *

تطلّع (حسن) إلى ساعته ، التى أشارت عقاربها إلى ساعة متأخرة ، ورفع عينيه إلى (صبرى) ، الذى بدا شديد القلق والتوتر ، وقال فى خفوت :

- لا يوجد ما يمكن فعله فى الوقت الحالى يا صديقى .

أومأ (صبرى) برأسه موافقًا ، وقال :

- وهذا ما يزيد من قلقى .

اتجه نحوه ، قائلاً :

- لو أن الأمر يقلقك إلى هذا الحد ، يمكنك الاتصال برجالنا ، فى مكتب (باريس) ، أو بالسفارة نفسها ؛ ليتخذوا ما يلزم .

فكّر (صبرى) بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه نفيًا ، وقال فى حزم :

- لا يمكننى أن أفسد رحلته الميدانية الانفرادية الأولى .

اعترض (حسن) ، قائلاً :

- ولكن ...

استوقفه (صبرى) ، بمنتهى الحزم ، قبل أن يقول :

- كلا .. أنا رجل مخابرات فى المقام الأول ، وكل ما أنشده

هو صالح (أدهم) ، وحتى لو راودتنى أبوّتى لحمايته ، فأنا أدرك أنه من الأفضل له ، مستقبلاً ، ألا أتدخّل الآن .

قال (حسن) معترضًا :

ـ هذا بشأن مستقبله .. فماذا عن حاضره ؟!

صمت (صبرى) طويلاً ، قبل أن يقول فى حزم ، امتلأ بالمرارة والحزن ، على الرغم منه :

ـ هذا شأنه .. وحده .

نطقها وكيانه كله يتمزّق ..

بمنتهى العنف ..

* * *

عندما ضغط (ماير) زناد مسدسه ، كان واثقًا كل الثقة من إصابة هدفه فى مقتل ، فالمسافة التى تفصله عن (أدهم) ، لم تكن تتجاوز مترًا واحدًا ، وهو لم يخطئ أهدافاً أكبر ، من مسافات أبعد ..

أبعد بكثير ..

ولقد ضغط زناد مسدسه بمنتهى الغضب والقوة ..

ولكن الرصاصة لم تنطلق ..

ففى غمرة غضبه وثورته ، لم ينتبه (ماير) ، إلى أنه قد أفرغ خزانة رصاصاته كلها ، وهو يطارد (أدهم) فى الفندق ..

وعندما كشف هذا ، مع عدم انطلاق رصاصته ، حاول أن يبدل الخزانة ، بكل ما يملك من سرعة ..

ولكن (أدهم) لم يمهله ..

إنه لم يضع لحظة واحدة ؛ فعندما لم تنطلق الرصاصة ، تحرك بأقصى سرعة وخفة ومرونة ..

« السرعة يا (أدهم) .. السرعة هى سلاحك الأول ، فى مواجهة خصومك .. ينبغى أن تتعلّم كيف تضرب بسرعة ، وتتفادى الضربات بسرعة ، وتكُر بسرعة ، وتفر بسرعة .. والأهم . أن تفكّر وتتخذ القرار .. بأقصى سرعة .. »

كثيرًا ما ردّد والده هذه الكلمات على مسامعه ، وهو يدرّبه على سرعة الاستجابة ، وكيفية اتخاذ القرار ، فى المواقف الصعبة ..

ولقد أحسن الاستفادة من تعاليمه ..

إلى أقصى حد ..

فما إن اندفعت يد (ماير) ، نحو جيبه ؛ لالتقاط خزانة رصاصات جديدة ، حتى وثب (أدهم) نحوه وثبة بالغة المرونة ، وركله ركلة مباغتة فى أنفه ، أسقطته أرضًا فى عنف ، وهو يطلق سبابًا عبريًا ساخطًا ..

كما أغشت الركلة بصره لحظة .

لحظة واحدة ..

وعندما استعاد بصره بعدها ، لم يكن هناك أثر لـ(أدهم) ..

أدنى أثر .

وجُنّ جنون (ماير) وهو يبحث عنه فى كل مكان حوله ..

أعلى السلم الخلفى ..

وأسفله ..

فى الممر ..

فى حجرته ..

وكل هذا لم يسفر عن شىء ..

أى شىء ..

وبكل غضبه وثورته ، غمغم (ماير) ، وهو يعيد مسدسه إلى حزامه :

ـ هذا الصبى الوغد !..

تلفت حوله ، وكأنه يبحث عن مخرج ، ثم لم يلبث أن اندفع مغادرًا الفندق كله ، متجهًا نحو النقطة التى ينبغى أن يلتقى فيها رئيسه (إليعازر) ..

كان (إليعازر) قد تمركز ، فى تلك اللحظة ، مع فريق المستعربين ، فى نقطة قريبة من السفارة المصرية ، يراجعون خطتهم ، ويرتدون الأوشحة الفلسطينية ، استعدادًا للهجوم ..

ولقد كانت دهشة (إليعازر) بالغة ، عندما فوجئ بـ(ماير) يقدم عليه فى موقع الاستعداد ، وما إن رآه حتى سأله بصرامة :

ـ هل أنجزت مهمتك ؟

شعر (ماير) بحنق لا مثيل له ، وهو يشيح بوجهه قائلاً :

ـ ليس بعد .

انعقد حاجبا (إليعازر) فى غضب ، وهو يقول :

ـ ولم لا ، لم تعثر على الصبى ؟

بدا صوت (ماير) عصبيًا مُحْنَقًا ، وهو يقول :

ـ بلى ، ولكنه ليس صبيًا عاديًا .

حدّق (إليعازر) فيه بدهشة مستنكرة ، وهو يقول ، وقد تضاعف غضبه :

ـ ماذا تعنى ؟! إنه مجرد صبى مصرى ، يمكنك أن تلتهم عشرة مثله على الإفطار .

تضاعفت عصبية (ماير) ، وهو يقول :

ـ هذا ما تصورته أنا أيضًا فى البداية ، ولكن الصبى حقًا ليس صبيًا عاديًا ؛ فعلى الرغم من صغر سنه ، يقاتل كالوحوش ، ولقد أدهشنى هذا حتى إننى ...

قاطعه (إليعازر) فى غضب هادر :

ـ حتى إنك ماذا ؟!.. هل فقدت اتزانك ؟!.. هل اضطرب (ماير) العظيم ، عندما واجه صبيًا متميزًا ؟!

قال (ماير) فى حدة :

ـ ليس هذا هو السؤال ، يا رجل (الموساد) .. السؤال الحقيقى هو : كيف اكتسب صبى مثله ، مهارة مدهشة كهذه ؟!

أجابه (إليعازر) فى توتر :

ـ ربما كان أحد أبطال لعبة الكاراتيه ، أو ...

قاطعه (ماير) هذه المرة ، فى عصبية :

ـ يستحيل !.. ذلك الصبى يفكر ، ويقاتل ، كما لو أنه ...

بتر عبارته دفعة واحدة ؛ ربما لأنه شعر أن تكملتها ستبدو مخالفة لكل منطق ، فزمجر (إليعازر) فى شراسة ، قائلاً :

ـ كما لو أنه ماذا ؟!

تطلّع (ماير) إليه مباشرة ، وهو يجيب :

ـ كما لو أنه رجل مخابرات .

حدّق فيه (إليعازر) بمنتهى الدهشة والاستنكار ، قبل أن يصيح فى وجهه :

ـ أى قول أحمق هذا ؟!.. ما من جهاز مخابرات فى العالم ، يمكن أن يضم إليه صبيًا فى عمره .

زمجر (ماير) بدوره ، وهو يقول :

ـ وماذا عن السوفيت ، الذين ابتكروا فكرة أطفال الـ (كى . جى . بى) ؟!

أليس من المحتمل ، أنهم تعاونوا مع المصريين ، فى هذا المضمار ، وأن الصبى ، هو ثمرة هذا التعاون ؟!

عقد (إليعازر) حاجبيه ، وهو يفكر فى هذا الاحتمال ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه فى قوة وعناد ، قائلاً :

ـ المصريون لم يبلغوا هذا الشأن بعد .. ليست لدينا معلومات تؤكّد استنتاجك هذا ، ثم إن السوفيت لا يمكن أن يشاركوا المصريين ، أدق أسرار جهاز مخابراتهم . الأمريكيون أنفسهم ، عجزوا عن معرفة كيف يدرّب السوفيت الناشئين ، فى أقسام مخابراتهم .

قال (ماير) فى حدة :

ـ كيف تفسّر مهاراته الفائقة إذن ؟!

أجابه (إليعازر) فى صرامة :

ـ بأنها تبرير لفشلك فى اصطياده .

احتقن وجه (ماير) ، وهو يقول :

ـ أنا لم أفشل .

أجابه (إليعازر) ، بنفس الصرامة :

ـ ولم تنجح فى التخلُّص منه أيضًا .

فى نفس الوقت ، الذى راحا فيه يتجادلان حول الأمر ، كان (أدهم) يراقب الموقف من بعيد ...

لقد أدرك ، بذكائه الفطرى ، أن (ماير) ، إذا ما عجز عن إيجاده ، فسيعود حتمًا إلى من أرسله ..

وما دام الهدف من اغتياله ، هو منعُه من البَوْح بما سمعه فى الطائرة ، فهذا يعنى أن (ماير) سيقوده حتمًا إلى العقل المدبِّر ..

أو إلى المسئول عن تنفيذ عملية اغتيال وزير الخارجية المصرى ...

ولقد أدهشه للغاية ، أنه التقى به هنا .

عند قاعدة قوس النصر ..

ولقد أدهشه أكثر ، ذلك العدد من الرجال ، واضحى القوة ، الذين انهمكوا فى ارتداء الأوشحة الفلسطينية ..

إنهم ليسوا فلسطينيين حتمًا ..

فلماذا يرتدون هذه الأوشحة ؟!..

ولماذا الآن ، بعد منتصف ليل (باريس) ؟!..

أدرك فى هذه اللحظة فقط ، أهمية قراءة حركة الشفاه ، التى أصرّ والده على أن يلقنه إياها ..

فمن موقعه المستتر البعيد ، كان يمكنه قراءة شفاه (ماير) و(إليعازر) .

قرأ جدلهما ونقاشهما المُحتَدّ ..

ثم قرأ ما تحدثا فيه بعدها ، من ضرورة اغتياله ، بعد تنفيذ خطة الليلة ..

هذا يعنى أن الخطة سيتم تنفيذها الليلة ، وليس غدًا ..

ولكن الوزير يقيم الليلة فى مبنى السفارة المصرية ، و ...

فجأة ، وعند هذه النقطة ، فهم (أدهم) كل شىء ..

فهم سر التجمُّع ، عند قوس النصر ، فى هذه الساعة ..

وسر الأوشحة الفلسطينية ..

والرجال الأقوياء ..

ولكنه عجز عن معرفة ما يمكن أن يفعله ؛ لمنع هذا الهجوم الغادر ، على السفارة المصرية فى (باريس) !..

عجز لبضع لحظات ..

ثم فجأة ، خطرت بذهنه خطة ..

خطة مجنونة ..

تمامًا ..

* * *

10- جنون ..

« استعدوا يا رجال .. »

نطقها (إليعازر) فى صرامة ، فى مواجهة المستعربين ، الذين ارتدوا الأوشحة الفلسطينية ؛ استعدادًا للهجوم على السفارة المصرية ، فقال أحدهم ، وهو يحكم وشاحه حول وجهه :

- متى سنحصل على أسلحتنا ؟

أجابه في صرامة :

- قبل الهجوم مباشرة .. إنكم لن تسيروا فى شوارع (باريس) ، حاملين لأسلحتكم .

غمغم الرجل :

- فليكن .

أشار (إليعازر) إلى السيارة ، قائلاً :

- والآن ، جميعًا إلى السيارة .

سأله (ماير) فى قلق :

- وماذا لو التقط أحد رجال الشرطة رقمها ، أو ..

قاطعه فى صرامة :

- لقد استأجرناها باسم فلسطينيّ يقيم هنا .

ابتسم (ماير) فى خبث ، قائلاً :

- إذن ، فستتعمّد أن يراها أحد رجال الشرطة ، ويشك فى أمرها .

قال (إليعازر) فى برود :

- بدلاً من هذه الاستنتاجات المتفذلكة ، اذهب لإتمام مهمتك ، فبقاء ذلك الصبى على قيد الحياة ، قد يهدّد العملية كلها بالفشل .

انعقد حاجبا (ماير) ، وهو يقول فى حدة :

- (ماير) لم يفشل فى مهمة قط .

قال (إليعازر) ، فى شىء من السخرية :

- لكل شىء بداية .

شعر (ماير) بمزيد من الغضب ، وهمّ بقول شيء ما ، عندما سمع صوت محرك السيارة يدور فجأة ، فأدار عينيه إليه بحركة غريزية ، قبل أن يشهق ، فى مزيج من الثورة والغضب ، ويهتف :

ـ إنه هو .

حتى قبل أن يكتمل هتافه ، كان (أدهم) ينطلق بالسيارة الفان ، بأقصى سرعة .. وكانت مفاجأة مذهلة للجميع ..

لم يدر أحدهم كيف تسلل إليها ، ولا كيف احتل مقعد القيادة ، دون أن يلمحه أحدهم ، بل ولا كيف عرف موقعهم ..

وبكل الغضب ، صرخ (إليعازر) ، فى وجه (ماير) .

ـ لقد تبعك أيها الغبى !

صرخ فيه (ماير) بدوره :

ـ دع هذا لما بعد .. الحقوا به أولاً .. الأسلحة كلها فى السيارة .

أشار (إليعازر) إلى المستعربين ؛ لينطلقوا خلف (أدهم) ، وهو يقول فى صرامة :

ـ وكذلك (دافيد) و(كاهان) .

أدرك (ماير) ما يعنيه وجود رجلين من (الموساد) ، داخل السيارة ، التى يفر بها (أدهم) ، والتى يطاردها عشرة من المستعربين الأقوياء ، وهاله أن يظفر به أحدهم ، من دونه ، فانطلق بدوره إلى سيارته ، يشترك بكيانه كله فى السباق ..

وكانت أعنف مطاردة شهدتها شوارع (باريس) ..

على الإطلاق ..

* * *

شعر (أحمد) ، الشقيق الأكبر لـ (أدهم) ، بدهشة عارمة ، عندما استيقظ عطشًا فى الليل ، ففوجئ بوالده جالسًا فى الصالة المظلمة ، يواجه النافذة المطلّة على الحديقة ، فى صمت تام ..

ولثوانٍ ، وقف (أحمد) يحدّق فى والده لحظات ، قبل أن يتجه نحوه ، على أطراف أصابعه ، وعلى الرغم من ثقته ، فى أنه لم يصدر أدنى صوت ، فقد قال والده ، قبل أن يصل إليه :

ـ لماذا استيقظت ، فى هذه الساعة يا (أحمد) ؟

غمغم (أحمد) :

ـ كنت عطشًا فحسب .

ثم جلس إلى جوار والده ، ولاذ الاثنان بالصمت بضع لحظات ، قبل أن يسأله (أحمد) فى خفوت :

ـ أهذا بسبب (أدهم) ؟

صمت (صبرى) بضع لحظات أخرى ، قبل أن يجيب :

ـ إلى حد ما .

حمل صوته منتهى القلق ، وهو يسأل :

ـ أهو فى خطر ؟!

هزّ (صبرى) رأسه نفيًا ، وهو يجيب فى مرارة :

ـ لستُ أدرى .

وصمت لحظة أخرى ، ثم أضاف :

ـ وهذا ما يقلقنى .

هال الجواب (أحمد) ، فسأل بمزيد من القلق :

ـ لم تصل أية أخبار بشأنه ؟!

هزّ (صبرى) رأسه نفيًا مرة أخرى ، وقال :

ـ مطلقًا .

شملهما الصمت معًا بعض الوقت ، قبل أن يغمغم (أحمد) :

ـ يقولون : انعدام الأخبار هو خبر جيدٌ .

تمتم (صبرى) :

ـ أتمنى هذا .

سأله (أحمد) ، فى شىء من الحذر :

ـ ألا يمكنك الاتصال بسفارتنا هناك ، و ...

قاطعه (صبرى) فى صرامة :

ـ كلا ..

كان سيكتفى بهذا القول ، ولكنه شعر بما سيسببه هذا لـ (أحمد) من اضطراب ، فاستطرد :

ـ وصدقنى .. هذا من أجل (أدهم) .. من أجل مستقبله .

ولم يفهم (أحمد) ما يمكن أن يعنيه هذا ..

لم يفهم أبدًا ..

* * *

من حسن حظ (أدهم) ، أن والده دربه على قيادة السيارات ، على الطرق الوعرة ، منذ كان فى الثانية عشرة من عمره ، ولكنه ، وعلى الرغم من هذا ، لم يتخيّل نفسه أبدًا فى مطاردة كهذه ..

ست سيارات صغيرة تطارده فى شراسة ، وكلها يقودها رجال ، أكثر خبرة منه بكثير ..

كل هذا ، وهو يجهل وجود اثنين من رجال (الموساد) ، فى الصندوق الخلفى للفان ..

أما (دافيد) و(كاهان) ، فقد ارتبكا فى البداية ، عندما انطلقت بهما الفان فجأة ، وتصورا أن (إليعازر) قد أصدر أمرًا بالانطلاق ، ولكنهما ، عندما استعادا توازنهما ، أدركا الحقيقة المفزعة على الفور ..

أدركا أن ذلك الصبى ، الذى سمع حديثهما فى الطائرة ، هو الذى يقود الفان !!..

وأصابهما ذهول عارم ..

ثم راحت السكْرة ، وجاءت الفكرة ..

وفى توتر هامس ، قال (كاهان) :

ـ أى صبى هذا ؟!

غمغم (دافيد) فى عصبية :

ـ سنجيب هذا السؤال فيما بعد .. المهم أن نوقفه أولاً .

تطلّع (كاهان) إلى كومة الأسلحة أمامه ، وقال :

ـ لن يكون هذا عسيرًا ؛ فلدينا هنا ترسانة أسلحة كاملة .

غمغم (دافيد) :

ـ هل تقصد ...

أجابه (كاهان) ، قبل أن يكمل ، وهو يلتقط مدفعًا آليًا :

ـ بالتأكيد يا صديقى .. بالتأكيد .

حمل كلاهما مدفعين آليين ، وأشار (كاهان) إلى موقع السائق ، من الصندوق الخلفى للسيارة ، قائلاً :

ـ سنطلق النار هنا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كانت سيارتان من سيارات المستعربين ، تحيط بسيارته ، وثالثة تسعى لأن تسبقه لتقطع الطريق عليه ..

كانوا يشعرون أنهم يواجهون صبيًا صغيرًا ..

وكان هذا أكبر خطأ ارتكبوه ..

فربما كان (أدهم) مجرد صبى بالفعل ، ولكنه يمتلك جرأة وجسارة رجل ناضج .. وكان يقود الفان بمهارة كافية ..

لذا ؛ فقد مال بالفان ، ليرتطم بالسيارة إلى يمينه ، ثم عاد بها إلى اليسار فى سرعة وعنف ، ليرتطم بسيارة أخرى ..

تلك الحركة المزدوجة البارعة ، كانت مفاجأة للجميع ..

للمستعربين ..

و(ماير) ..

و(دافيد) و(كاهان) ..

وبالذات (دافيد) و(كاهان) اللذين اختل توازنهما ، مع الحركة المزدوجة المفاجئة ، فانطلقت رصاصات (دافيد) فى سقف الفان ، ومالت رصاصات (كاهان) ، لتخترق صندوق السيارة ، فى الجزء المجاور لـ (أدهم) تمامًا ..

وكانت المفاجأة الأخيرة ، من نصيب (أدهم) نفسه ..

فالرصاصات التى انطلقت ، فى الصندوق الخلفى ، جعلته يدرك أن المطاردين يكمنون معه ، فى السيارة نفسها ..

وهذا يعنى أن المصيدة تُطبق عليه ، من جميع جوانبها ..

السيارات أمامه ، وخلفه ، ومن حوله ..

وخصومه مسلحون ، فى الصندوق ، خلفه مباشرة .

وهذا يعنى أن خطته كانت جنونية ، أكثر من اللازم ..

وأنها لم تترك له مفرًا ..

أى مفر ..

على الإطلاق .

* * *

انطلق الملحق العسكرى ، للسفارة المصرية فى (باريس) ، يعدو ، عبر ممر السفارة ، ليلتقى بالسفير ، فى منتصف المسافة ، وهذا الأخير يقول فى قلق :

- هناك دوى رصاصات قريب .. ما الذى يحدث بالضبط ؟!

أجابه الملحق العسكرى ، فى توتر ملحوظ :

- إننى فى سبيلى لمعرفة ذلك يا سيدى .

أسرع بالفعل إلى سطح السفارة ، وتطلّع بمنظار مقرّب ، إلى الجهة التى انبعث منها دوى الرصاصات ..

وهاله ما رأى !!..

كانت هناك مطاردة عنيفة ، تدور فى شوارع (باريس) ، على مقربة من مبنى السفارة ..

مطاردة بين سيارة فان مسرعة ، وثلاث أو أربع سيارات ..

لحق سكرتير السفارة بالملحق العسكرى ، فى هذه اللحظة ، وسأله فى توتر بالغ :

- ماذا يحدث بالضبط ؟!

غمغم الملحق العسكرى ، وهو يتابع ما يحدث فى اهتمام ، عبر منظاره المقرّب :

- لست أدرى بعد ، ولكننى أحاول الفهم .

هاله بشدة أن رأى رجالاً يرتدون الأوشحة الفلسطينية ، فى تلك السيارات الصغيرة ، ثم شاهد وجهًا مألوفًا ، فى سيارة أخرى ..

وجهًا جعله يغمغم :

- رباه !.. ترى هل ...

لم يكمل عبارته ، وعقله يستعرض مجموعة من الوجوه ، التى درسها إبّان عمله فى المخابرات ..

ثم توقّف ذهنه فجأة ، عند وجه بعينه ..

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يغمغم :

- (ماير) !

سأله سكرتير السفارة :

- من ؟!

أجابه فى حزم متوتر :

ـ قاتل رسمي .. يعمل لحساب (الموساد) الإسرائيلي .

شحب وجه سكرتير السفارة ، وهو يغمغم :

ـ قاتل ؟!

تابع الملحق العسكرى ، وكأنه لم يسمعه :

ـ الغريب فى الأمر ، هو أن يشترك مع مجموعة من الفلسطينيين ، فى مطاردة الفان ، وهذا أمر مستحيل .

سأله سكرتير السفارة فى توتر :

ـ ومن يقود الفان ؟

أدار الملحق العسكرى منظاره نحو الفان ، التى دارت بحركة حادة ، وارتطمت بسيارتين ، ثم واجهته مباشرة ، واتسعت عيناه بمنتهى الدهشة ، وهو يغمغم :

ـ ربّاه !.. إنه مجرّد صبى !

تساءل سكرتير السفارة :

ـ هل سرق الفان ؟.. أهو سارق سيارات ؟

لم يجبه الملحق العسكرى ، وهو يفكّر فى عمق ، ثم لم يلبث أن خفض منظاره المقرّب ، وهو يغمغم ، فى لهجة توحى بأهمية وخطورة الأمر :

ـ لابد من إبلاغ (القاهرة) .. فورًا .

وفى الوقت الذى تعالى فيه دوى أبواق سيارات الشرطة الفرنسية ، فغر سكرتير السفارة فاه فى حيرة ..

فهو لم يفهم ما يحدث ..

لهذا ..

* * *

ما إن سمع (إليعازر) دوى أبواق سيارات الشرطة الفرنسية ، حتى كاد ينفجر غيظًا وثورة ...

فآخر ما كان يتمناه ، فى تلك الليلة ، هو ظهور وتدخل الشرطة ..

وكم شعر بالغضب والثورة على (أدهم) !..

وكم تمنى لو يملك عنقه ، فى تلك اللحظة !..

ولكنه ، كرجل مخابرات ، استطاع كتمان مشاعره فى أعماقه ، وهو يلتقط جهاز اللاسلكى المحدود ، الذى يربطه برجاله ، قائلاً ، فى صرامة تحمل نبرة حنق واضحة :

ـ انسحبوا فورًا .. فليبق (دافيد) و(كاهان) فقط ، وعليهما تصفية المسئول ، أيًا كان الثمن .. أكرر .. أيًا كان الثمن .

وعلى الرغم من حنقهم ، انسحب المستعربون فورًا ، وبقى (ماير) وحده يواصل المطاردة ، باعتبار أنه لا يشترك مع الآخرين ، فى دائرة اللاسلكى المغلقة ..

ثم إن الغضب فى أعماقه كان يفوق كل شىء ..

حتى الأوامر ..

وعلى الرغم من رؤيته السيارات الأساسية تنسحب ، أدرك (أدهم) أن الخطر ما زال يكمن فى الصندوق الخلفى للسيارة التى يقودها ..

وكان المفر الوحيد ، هو ألا ينطلق بها فى خط مستقيم أبدًا ..

من المحتم أن ينطلق متأرجحًا فى عنف ؛ حتى لا يتمالك القاتلان فى الصندوق الخلفى توازنهما أبدًا ..

وهذا ما فعله ..

وفى حنق ، غمغم (كاهان) :

ـ يا له من صبى لعين !.. إنه يمنعنا من إجادة التصويب ..

هتف (دافيد) :

ـ التصق بالجدار ، وستحصل على الثبات اللازم .

استمع (كاهان) إلى النصيحة ، والتصق الرجلان بالجدار الداخلى للصندوق ، فى محاولة لاستعادة توازنهما ، وهما يصوبان مدفعيهما إلى حيث يجلس سائق الفان ، و ...

ولكن (أدهم) أقدم على عمل أكثر جنونًا ..

لقد مال بالفان فى عنف ، واتجه بها نحو مبنى السفارة المصرية ..

مباشرة ..

وعلى سطح السفارة ، هتف الملحق العسكرى بمنتهى الدهشة :

ـ مستحيل !.. ماذا يفعل هذا المجنون ؟!

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها تساؤله ، كان (أدهم) يقفز بالفان فوق الرصيف ، فتميل على نحو بالغ الخطورة ، ثم تسقط على جانبها فى عنف ، باغت (دافيد) و(كاهان) ، اللذين ارتطما بالجدران بمنتهى العنف ، قبل أن تصطدم الفان بجدار سور السفارة بمنتهى العنف ، مما ألقاهما إلى الأمام فى قوة ، ليرتطما بمقدمة الصندوق على نحو شديد الإيلام ..

وضغط (ماير) فرامل سيارته بمنتهى القوة ، فى نفس الوقت الذى أضيئت فيه أنوار السفارة ، وظهر رجال أمنها يجرون نحو الباب الرئيسى ..

وفى الوقت نفسه ، اكتظ المكان بسيارات الشرطة الفرنسية ، التى وصلت فى اللحظة نفسها ..

وأمام عينى (ماير) ، انقض الكل على الفان ، وأحاطوها بأسلحتهم المشهرة ، وألقوا القبض على (دافيد) و(كاهان) ، اللذين أصيبا إصابات فادحة ..

ولدهشة (ماير) ، لم يجدوا سواهما ، مع كومة الأسلحة ..

أما (أدهم) الشاب ، فقد اختفى ..

اختفى تمامًا ..

* * *

« (أدهم) .. »

هتف (صبرى) بالاسم ، فى انفعال بالغ ، فور قراءة التقرير الوارد من (باريس) ، فسأله مديره فى اهتمام وفضول :

ـ ما شأن (أدهم) ابنك بهذا ؟!

أخفى (صبرى) توتره ، وهو يجيب :

ـ فقط تذكرته الآن .

تطلع إليه مديره فى شك ، وسأله :

ـ أين (أدهم) الآن يا (صبرى) ؟

صمت (صبرى) لحظات ، ثم أجاب فى توتر :

ـ فى (باريس) .

انعقد حاجبا المدير فى غضب ، وأعاد قراءة تلك الفقرة فى التقرير ، والتى تتحدثُ عن صبى يقود الفان ، التى اصطدمت بالسفارة ، ثم قال فى صرامة شديدة :

ـ أما زلت مصرًا على تلك التجربة الجنونية ، التى تجريها على ابنك يا (صبرى) ؟!

صمت (صبرى) لحظة ، قبل أن يجيب فى اقتضاب :

ـ ليست جنونية .

رمقه المدير بنظرة غاضبة صارمة ، قبل أن يقول :

ـ هذا شأنك ، ولكن لو أن ذلك الصبى ، الذى كان يقود هو (أدهم) الفان ، فى تلك المطاردة المسعورة التى انتهت بما انتهت إليه ، هو (أدهم) ، فلن يكون هذا شأنك .

لم يفهم (صبرى) ما يعنيه المدير بقوله ..

لم يفهم أبدًا ..

ولكنه شعر بالقلق ..

قلق عنيف ، جعل قلبه يخفق فى عنف ، وهو يسأل :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

أجابه المدير فى صرامةٌ :

ـ الكاميرا الصغيرة ، فى منظار الملحق العسكرى ، التقطت صورة سائق الفان ، ولقد أصدرتُ أوامرى بالبحث عنه فى (باريس) ، و ...

صمت لحظة ، ثم أضاف فى صرامة أكثر :

ـ وإلقاء القبض عليه .

ازدرد (صبرى) لعابه فى توتر ، دون أن يجيب ، ولكن كل ذرة فى كيانه ، كانت تشعر بتوتر بالغ ..

فلو ألقت المخابرات القبض على (أدهم) ، فسيعنى هذا انعدام فرصته تمامًا ، فى الانضمام إليها يومًا ما ..

وهذا يفسد خطته ..

وحلم حياته ..

وقبل أن يتمادى فى أفكاره ، سمع مديره يكمل :

- وصورة ذلك الصبي تصلنا الآن بالراديو(*) .

التفت (صبري) بكل قلق الدنيا ، نحو جهاز استقبال الإشارات ، الذي راح يستقبل الصورة نقطة بنقطة ، من أسفل إلى أعلى ..

حتى اكتملت تمامًا ..

وهوى قلب (صبري) بين قدميه ..

فعلى الرغم من عدم وضوح الصورة ، عرف على الفور أنها صورة ابنه ..

صورة (أدهم) ..

ويا لها من صدمة !..

عنيفة .

(*) صورة الراديو : وسيلة قديمة للغاية لنقل الصور ، تعتمد على نقل الصورة نقطة بنقطة ، عبر إشارات اللاسلكي ، وهي تنتج صورة قليلة الوضوح ، وغير صالحة للتكبير .

* * *

11- الصدمة ..

على الرغم من أنه لم يتجاوز سن المراهقة بعد ، كان (أدهم) الشاب يتحرك ويتصرف ، كأنه رجل شديد النضوج ..

لقد تصرّف تمامًا ، كما درّبه والده ..

فقبل أن تنقلب الفان بلحظة واحدة ، قفز منها ، على الفراغ الذي بينها وبين سور السفارة المصرية ، واندفع يجري بكل قوته ، مستترًا بالجدار ، حتى دار حول مبنى السفارة ، في نفس اللحظة التي أضيئت فيها الأنوار ، واندفع رجال الأمن المصريين ..

وبينما يلقي الملحق العسكري القبض على (دافيد) و(كاهان) ، قبل وصول الشرطة الفرنسية ، كان (أدهم) يبذل جهده ؛ ليبدو طبيعيًا ، وهو يبتعد بأقصى سرعته ، متحاشيًا أن يراه أحد ..

ولكن هذا لم يَعْنِ أنه قد أفلت تمامًا ..

فربما لم يره رجال أمن السفارة ، ولا المستعربون ..

ولا حتى (إليعازر) ..

ولكن (ماير) لمحه ..

وأدرك ما يسعى إليه ..

ولأنه محترف ، فقد واصل طريقه بسيارته ، حتى تقاطُع قريب ، ثم أوقفها إلى جانب الطريق ، ووثب منها حتى قبل أن يتوقَّف محركها ، وانطلق خلفه ..

خلف (أدهم) الشاب ..

وفى الوقت الذى تصوَّر فيه (أدهم) أنه قد ابتعد تمامًا ، عن مصدر الخطر ، كان (ماير) يقبض على مسدسه المزوَّد بكاتم للصوت ، فى جيب معطفه ، وهو يتابعه فى إصرار ..

وفى هدوء ، راح (أدهم) يطلق من بين شفتيه صفيرًا منغومًا ، وهو يعود إلى فندقه .

وهنا رآه (ماير) ..

رآه ، وكشَّر عن أنيابه ، وهو يزمجر ، مغمغمًا :

ـ ظفرت بك أيها الصبى !

صوَّب مسدسه نحو (أدهم) ، فى تركيز شديد ، وبدا من الواضح أنه لن يخطئ هدفه هذه المرة ، و ...

فجأة ، خرج رجال شرطة من الفندق ، واستوقف أحدهم (أدهم) ، وهو يقول فى صرامة ، وفى لهجة مهذَّبة ، فى الوقت ذاته :

ـ هل تقيم هنا ؟

أجابه (أدهم) فى هدوء :

ـ نعم .. فى الحجرة رقم ...

استوقفه رجل الشرطة الفرنسى ، قائلاً :

ـ لا يهمنا رقم حجرتك . نريد أن نعرف فحسب ، منذ متى غادرت الفندق ؟ ولماذا بقيت خارجه ، حتى هذه الساعة المتأخرة ؟

هزَّ (أدهم) كتفيه ، وأجاب فى بساطة .

ـ إنها أوَّل زيارة لى إلى (باريس) ، ويقولون : إن ليلها ساحر .

غمغم رجل الشرطة فى ضجر :

ـ فهمت .

ثم عاد يسأل فى صرامة :

ـ ألم تسمع شيئًا ، أو تلحظ شيئًا ، قبل أن تتصرف .

سأله (أدهم) فى اهتمام :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟

اعتدل رجل الشرطة ، وتطلَّع إليه لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ أحدهم قتل المدير الليلى .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يقول فى توتر :

ـ قتله ؟!

عاد رجل الشرطة يتطلَّع إليه ، قائلاً :

ـ يبدو أن هذا لم يدهشك .

أجابه (أدهم) :

ـ وهل المفترض أن يفعل ؟!

قال رجل الشرطة فى شك :

ـ معظم الناس يدهشهم هذا .

قال (أدهم) ، فى شىء من الصرامة :

ـ لست كمعظم الناس .

مع تلك الإجابة ، التى نطقها (أدهم) بفرنسية سليمة تمامًا ، رمقه رجل الشرطة الفرنسى بنظرة شك طويلة ، قبل أن يقول ، فى صرامة شديدة :

ـ اترك اسمك لمساعدى ، وإذا ما تذكَّرت شيئًا ، فاتصل بالمفتش (لوبان) .

غمغم (أدهم) :

ـ سأفعل .

رمقه المفتش بنظرة نارية ، قبل أن يشير لمساعده ، قائلاً :

ـ خذ اسمه ورقم حجرته .

ترك (أدهم) اسمه ورقم حجرته للمساعد ، وذهنه شارد تمامًا ..

لقد قتلوا المدير لليلى ..

وهو واثق أنه السبب فى هذا ..

قتل المدير ، كان مجرد خطوة ، للوصول إليه ..

قتلوه ليعرفوا رقم حجرته ..

أو ليدخلوها ..

ويا للأوغاد !..

منذ زمن طويل ، أخبره والده عن (الموساد) ..

عن أسلوبه ..

ورجاله ..

ووحشيته ..

أخبره أنه واحد من أجهزة المخابرات القليلة ، التى لا تقيم وزنًا لأية قواعد ، عندما تقاتل ..

جهاز يقتال بوحشية ، ويدمّر الصديق قبل العدو ، ويذبح الأطفال ، ويبقر بطون الحوامل والأمهات ..

وعندما تساءل عما إذا كان سيواجهه يومًا ، استنكر والده الفكرة بشدة ، وأخبره أن هذا لا ينبغى أن يحدث ، قبل سنوات طوال ..

ولكنه حدث ..

حدث بترتيب إلهى ، لم يكن فى الحسبان ..

وربما حدث ؛ لإنقاذ وزير الخارجية فحسب ..

ربما !..

من يدرى !..

كان يفتح باب حجرته ، وتلك الفكرة الجديدة تدور فى ذهنه ، عندما جذبه أحدهم إلى الداخل فجأة فى قوة ، وشعر بفوهة مسدس تلتصق بعنقه ، وصوت (ماير) يقول فى صرامة شامتة :

ـ أخيرًا أيها الصبى !

قالها (ماير) ، وهو يغلق الباب فى عنف ..

وفى شراسة ..

إسرائيلية ..

* * *

بدا مدير المخابرات المصرية غاضبًا بحق ، وهو يراجع تقرير خبير الصور الفوتوجرافية ، ويقول فى استنكار :

ـ ما الذى يعنيه تقريرك هذا بالضبط ؟!.. كيف لم تتعرف هوية ذلك الصبى فى الصورة ؟!

أجابه خبير الصور فى قلق :

ـ الصورة غير واضحة على الإطلاق يا سيادة الوزير[*] ، التصوير تم على عجل ، فى ليل باريس ، ولجسم متحرك ، والفيلم فى آلة التصوير الصغيرة لم يكن مناسبًا لظروف السرعة أو الإضاءة .

تراجع المدير فى مكتبه ، وهو يقول :

ـ إذن ، فأنت عاجز عن تحديد للهوية ؟

(*) منصب مدير المخابرات العامة ، يعادل مرتبة الوزير .

هزّ الرجل رأسه ، مجيبًا :

ـ لا أحد يمكنه هذا .

صمت المدير لحظات ، ثم اعتدل ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ فليكن .

تراجع الرجل ، متسائلاً :

ـ هل من أوامر أخرى يا سيادة الوزير ؟

غمغم المدير :

ـ لقد فعلت ما يوسعك .

انتظر حتى انصرف الرجل ، ثم ضغط زر الاتصال ، قائلاً :

ـ أريد (صبرى) .. حالاً .

لم تمض دقائق ، حتى وصل (صبرى) إلى مكتبه ، فاستقبله ، قائلاً :

ـ يبدو أنك وابنك محظوظان يا (صبرى) .

لم يجب (صبرى) ، وإنما أطلّ من عينيه تساؤل حائر ، فأكمل المدير :

ـ خبير التصوير لم يمكنه تعرّف ابنك .

قال (صبرى) فى حذر :

ـ ربما ليس هو ...

قاطعه المدير فى صرامة :

ـ إنه هو .

ثم نهض من خلف مكتبه ، واتجه إليه ، وهو يتطلّع إلى وجهه ، مكملاً :

ـ لا تحاول الإنكار .. أنا أعلم أنه ابنك (أدهم) .. ما من صبى سواه ، يمكنه أن يتعامل مع فريق من عمالقة (الموساد) وقتلته ، على هذا النحو ، وبكل هذه الجرأة .

غمغم (صبرى) ، فى توتر شديد :

ـ عمالقة (الموساد) وقتلته ؟!

تفرّس المدير ملامحه ، وهو يقول :

ـ نعم .. السيارة الفان ، التى كان يقودها ، والتى ارتطم بها بسور سفارتنا فى (باريس) ، قبل أن تنقلب ، كانت تحوى كومة من الأسلحة القتالية ، مع اثنين من رجال (الموساد) .. (دافيد هاير) ، و(روبير كاهان) .. وملحقنا العسكرى ما زال يستجوبهما داخل السفارة ، قبل تسليمهما للشرطة الفرنسية ، ولقد رصد ملحقنا قاتل (الموساد) الأوّل (ماير) ، وهو يطارد ابنك .

بدا (صبرى) شديد التوتر ، وهو يردّد :

ـ يا إلهى .. (ماير) !

وضع المدير يده على كتفه ، قائلاً :

ـ نعم .. (ماير لانسكى) .. الذى يلقبونه بـ (ماير) المفترس .. إنه يتعقّب ابنك .. وهو يزهو دومًا بأنه لم يفشل فى مهمة قط .

انعقد حاجبا (صبرى) بشدة ، وهو يراجع ما سمعه .

(ماير لانسكى) .. لو أنه يتبع (أدهم) بالفعل ، فقد يعنى هذا أنها آخر مرة يرى فيها ابنه ..

على الإطلاق .

* * *

عقد (إليعازر) كفيه خلف ظهره وعقد حاجبيه فى غضب صارم ، وهو يسير أمام المستعربين ، يتطلع إليهم فى صمت ، ووجوههم كلها تحمل مزيجًا من الإحباط والضيق ..

ثم فجأة ، توقف (إليعازر) ، وقال :

ـ لقد خسرنا هذه الجولة .

تطلع إليه الرجال فى توتر ، فأضاف فى مقت :

ـ خسرناها بسبب صبى مصرى .

تمتم أحدهم :

ـ إنه ليس صبيًا عاديًا .

صاح فيه (إليعازر) :

ـ إنه مجرد صبى ، مهما بلغت مهاراته .

تردد أحد المستعربين ، قبل أن يقول :

ـ ولكنه يمتلك مهارات ، تكافئ مهارات شاب فى الخامسة والعشرين ، بعد عشر سنوات من التدريب .

زمجر (إليعازر) ، قائلاً فى شراسة :

ـ المبالغة لن تفيدنا .

اندفع آخر ، يقول :

ـ ليست مبالغة .

رمقه (إليعازر) بنظرة نارية ، ثم تجاهل الأمر كله ، وهو يقول :

ـ ولكننا لم نخسر المعركة .

سأله (أحدهم) فى تردد :

ـ ماذا ؟!

صاح فيه (إليعازر) ، وكأنه يفرغ توتره كله :

ـ خسرنا جولة ، ولم نخسر المعركة .. ألا تفهم ما يعنيه هذا ؟!

غمغم الرجل متراجعًا :

ـ بلى .. بلى .

بدا (إليعازر) شديد الغضب ، وهو يتطلّع إليهم ، ثم لم يلبث أن أشاح بوجهه ، وأولاهم ظهره ، وهو يقول :

ـ تنفيذ العملية الليلة ، يُعدُّ من رابع المستحيلات ، وهذا يعنى أننا خسرنا فرصة ذهبية ، للتخلُّص من الوزير المصرى ، فرجال أمن السفارة سيظلون متحفزين طوال الليل ، ولن يغمض لهم جفن ، حتى يستقل الوزير سيارته المصفّحة إلى مقر المؤتمر ، فى الصباح .

صمت لحظات ، بدا خلالها ، وكأنه يفكّر فى عمق ، ثم تابع :

ـ وهذا يعنى أننا سنفقد آخر فرصة ، ما لم ...

عاد إلى صمته ، فتطلّع إليه المستعربون فى فضول وتوتر ، إلى أن تابع :

ـ ما لم نستغل آخر فرصة .

سأله أحدهم :

ـ وما هى آخر فرصة ؟

شدَّ (إليعازر) قامته ، وهو يجيب فى حزم :

ـ المؤتمر ..

لم يفهم الرجال ما يعنيه ..

ففى البداية ، أخبرهم أن اغتيال الوزير المصرى ، شبه مستحيل ، إذا ما بدأ رحلته إلى حيث المؤتمر ..

وكل كلمة قالها بدت منطقية ..

منطقية تمامًا ..

والآن يقول : إن فرصتهم الوحيدة فى اغتياله ، هى المؤتمر !!..

فما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

همَّ أحدهم بسؤاله ، عندما ارتفع رنين الهاتف فجأة ، فالتقطه (إليعازر) بحركة سريعة ، وقال :

ـ من المتحدث ؟!

أتاه صوت (ماير) ، وهو يقول فى توتر :

ـ أنا (ماير) .

كادت أصابع (إليعازر) تعتصر سماعة الهاتف ، وهو يسأله ، بكل توتر الدنيا :

ـ ماذا تم ؟!

أجابه (ماير) :

ـ لقد أنجزت المهمة .

وتألقت عينا (إليعازر) فى شدة ..

فقد كان هذا يعنى أن (أدهم) قد انتهى ..

إلى الأبد ..

* * *

صمت الملحق العسكرى ، فى سفارة (مصر) فى (باريس)

طويلاً ، وهو يتطلّع إلى (دافيد) و(كاهان) ، اللذين بدوا شديدَي التوتر ، قبل أن يقول فى بطء :

ـ (روبير كاهان) و(دافيد هاير) .. من قطاع العمليات الخارجية فى (الموساد) .. ترى ماذا كنتما تفعلان ، مع كومة من الأسلحة ، داخل تلك الفان ؟!

غمغم (كاهان) فى عصبية :

ـ أخبرناك أننا كنا مخطوفين ، و ...

قاطعه الملحق العسكرى فى صرامة :

ـ أهذا أقصى ما أنبأك ذكاؤك به ؟!

تطلّعا إليه فى توتر ، فتابع فى غضب :

ـ أى أحمق هذا ، الذى يختطف اثنين من رجال (الموساد) ، ثم يضعهما فى صندوق فان ، تحمل كومة من الأسلحة والذخيرة ؟!

بدت لهما كلماتهما شديدة الحماقة والسخافة آنذاك ، فلاذا بالصمت التام ، فى حين تابع هو فى صرامة :

- ثم إن ما سجلناه يؤكد أن الذى كان يقود الفان مجرد صبى .

قال (دافيد) فى سخط :

- ليس صبيًا عاديًا .

التقى حاجبا الملحق العسكرى ، وهو يميل نحوهما ، متسائلاً :

- وما الذى يعنيه هذا ؟!

تبادل الرجلان نظرة شديدة التوتر ، قبل أن يجيب (كاهان) فى خفوت :

- المفترض أن تجيبوا أنتم هذا السؤال .

سأله الملحق العسكرى فى سرعة :

- ولماذا ؟!

تبادلا نظرة أخرى ، ثم قال (دافيد) ، فى توتر شديد :

- إنه مصرى .

اتسعت عينا الملحق العسكرى ، لجزء من الثانية ، ثم لم يلبث أن استعاد ملامحه العادية ، وهو يسأل :

- ولماذا يطارد جيش منكم صبيًا مصريًا ؟!

لم يجب أحدهما السؤال ، وإنما تطلّعا إلى بعضهما البعض ، قبل أن يقول (كاهان) فى عصبية :

- لماذا تستجوبنا هنا ؟!.. المفترض أن تسلمنا للشرطة الفرنسية ، وهى التى تتولّى ...

قاطعه الملحق العسكرى فى صرامة :

- تهريبكما .. أليس كذلك ؟!..

بدا عليهما التوتر ، فتابع :

- مصادرنا تؤكد أن لكم أعوانًا ، فى أوساط الشرطة هنا ، وأنكم تستأجرون جيشًا من المحامين .

قال (دافيد) متوترًا :

- ليس هذا من شأنك .

هزَّ الملحق العسكرى كتفيه ، وقال :

ـ ربمـا .

ثم سحب مسدسه ، وتلاعب به فى يده ، قائلاً :

ـ على أيـة حـال .. الشرطة الفرنسية لا تدرى شيئاً عنكما ، ولو أطلقت عليكما النار ، ودفنتكما فى قبو السفارة ، فسيتم هذا فى أرض مصرية ، لا يجرؤ حتى رئيس الشرطة علـى أن يطأها بقدمه .

قال (كاهان) فى حدة :

ـ هذا ليس أسلوبكم ، أيها المصريون .

هزَّ الملحق العسكرى كتفيه مرة أخرى ، وقال :

ـ ولكننا فى حالة حرب ، وكل شىء مباح فـى الحروب ، كما تقولون .

تمتم (دافيد) فى خوف :

ـ ولكنكم لم تفعلوها من قبل .

ابتسم الملحق العسكرى فى سخرية ، وقال ، وهو يدير فوهة مسدسه نحوهما :

ـ بل قل : إنكم لم تعلموا أننا فعلناها .

شحب وجهاهما علـى نحو مضحك ، وقـال (كاهـان) ، وهو يفتعل ضحكة عصبية :

ـ لن يفلح تهديدك الأجوف هذا .

صمت الملحق العسكرى لحظة ، ثم قال فى حزم :

ـ فليكن .

صـوَّب مسدسـه إلـى رأس (دافيـد) ، وهـو يستطرد فـى صرامـة :

ـ إننى لن أحتاج إلا لواحد منكم فحسب ، على أية حال .

تراجع (دافيد) فى حركـة مذعورة ، فـى نفس اللحظـة التـى فتـح فيهـا أحد مساعدى الملحـق العسكرى الباب ، وقـال فـى توتـر :

ـ مهلاً يا سيدى .

أجابه الملحق العسكرى ، دون أن يلتفت إليه :

ـ ليس الآن يا رجل .. سأطلق رصاصة واحدة ، ثم نتحدث .

انعقد حاجبا (كاهان) فى شدة ، فى حين اتسعت عينا (دافيد) فى ذعر ، فى نفس الوقت ، الذى قال فيه المساعد فى توتر :

ـ ولكن سيادة السفير يرفض إطلاق النار ، فى حجرات السفارة .. يمكنك أن تفعلها فى القبو ... إنه عازل للصوت على الأقل .

صمت الملحق العسكرى لحظات ، ثم قال :

ـ فليكن .. خذ أحدهما ، وأطلق النار على رأسه هناك .

أجابه المساعد فى بساطة ، وهو يتجه نحوهما :

ـ أمرك يا سيّدى .

ثم صوّب مسدّسه بدوره إلى رأس (كاهان) ، وهو يقول له فى صرامة :

ـ انهض وسِرْ أمامى .

بدا (دافيد) شديد الذعر ، وهو يشاهد زميله يخرج من الحجرة ، مع مساعد الملحق العسكرى فجذبه إليه الملحق ، وهو يسأله فى هدوء ، لا يتناسب مع الموقف :

ـ أين ذهب الصبى المصرى ؟

ازدرد (دافيد) لعابه فى صعوبة ، وتمتم :

ـ هل .. هل ألقيتم القبض على (ماير) ؟!

سأله الملحق العسكرى فى صرامة :

ـ (ماير لانسكى) .. كلا .. هل له علاقة باختفاء الصبى ؟

حاول (دافيد) أن يزدرد لعابه ، عبر حلقه الجاف ، وهو يتمتم فى صعوبة :

ـ بالتأكيد .. لو لم تقبضوا عليه ، فهذا يعنى أنكم لن تعثروا على الصبى ... أبدًا .

وانعقد حاجبا الملحق العسكرى ...

فى شدة .

* * *

12 ـ رصاصة فى الليل ..

على الرغم من أن (صبرى) لم يذق النوم لحظة واحدة ، طوال الليلة السابقة ، إلا أنه بدا متماسكًا أمام مدير المخابرات ، فى الصباح التالى ، وهذا الأخير يقول :

ـ إنه ابنك يا صبرى .

انعقد حاجبا (صبرى) فى شدة ، ولاذ بالصمت التام ، فتابع المدير فى رصانة :

ـ ولكننا لن نتهمه بشىء .

تطلّع إليه (صبرى) فى صمت ودهشة ، فأكمل :

ـ بل إننا على العكس ، سنعتبره من أحد أفضل مواطنينا .

بلغت حيرة (صبرى) ذروتها ، وتساءل فى حذر :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟!..

ابتسم مدير المخابرات ، وهو يقول :

ـ لقد اعترف أحد عميلى (الموساد) ، بأنهم كانوا يُزمعون مهاجمة السفارة المصرية فى (باريس) أمس ؛ لاغتيال وزير خارجيتنا ، ولكن ابنك (أدهم) سمع خطتهم بالمصادفة ، أثناء ذهابه إلى (باريس) ، ويبدو أنه أخذ الأمر على عاتقه ، فواجه فريقًا من المستعربين وحده ، وأرهقهم طوال الليل ، حتى أفسد خطتهم فى نهايته .

حمل صوت (صبرى) مزيجًا من الدهشة والزهو والفخر ، وهو يغمغم :

ـ (أدهم) فعل هذا ؟!

نهض مدير المخابرات ، ووضع يده على كتفه ، قائلاً بابتسامة كبيرة :

ـ ابنك بطل يا (صبرى) .

ثم عقد كفيه خلف ظهره ، واتجه نحو النافذة ، مكملاً :

ـ ومن الواضح أن برنامجك قد أتى ثماره ، وعلى نحو مدهش .

غمغم (صبرى) :

ـ أتعشَم هذا .

ثم سأل فى قلق :

ـ ولكن ماذا عن (أدهم) .. هل ظهر ؟!

صمت المدير لحظة ، قبل أن يجيب :

ـ مصادرنا قالت : إنه عاد إلى فندقه ، فى ساعة متأخرة أمس ، وعندما صعد أحد رجال سفارتنا إلى حجرته ، فوجئ بها خالية ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، والتقى حاجباه ، فسأله (صبرى) فى خوف :

ـ وماذا ؟!

تطلَّع إليه المدير ، وهو يواصل صمته ، قبل أن يقول فى خفوت :

ـ ووجدوا هناك آثار دماء متناثرة ... و ... وإصبعًا .

اتسعت عينا (صبرى) فى ذعر مذهول ، وهو يقول :

ـ إصبعًا ؟!

أومأ المدير برأسه إيجابًا ، وحاول تخفيف الأمر عليه ، وهو يقول :

ـ ملحقنا الطبى حصل عليه ، وهو يقوم بفحصه الآن ، وسوف ...

قاطعه (صبرى) فى انفعال ، دون أن ينتبه إلى ما فى هذا من مخالفة ، لقواعد الرسميات واللباقة والذوق :

ـ ماذا أصاب ابنى ؟!

ربَّت المدير على كتفه ، وقال :

ـ حاول أن تبعد كل الأفكار السلبية عن ذهنك ؛ فرجالنا هناك يبذلون قصارى جهدهم ، لحسم الأمر ، وإيجاد ابنك .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ ثم إن لديك مهمة أخرى ، لا ينبغى أن يتشتت ذهنك خلالها .

سأله (صبرى) ، دون أن يحاول إخفاء توتره :

ـ مهمة ؟!

عاد المدير خلف مكتبه ، وهو يقول :

ـ المؤتمر الذى يحضره وزير خارجيتنا فى (باريس) ، وكل إجراءات الأمن المحيطة بـه ، مجـرَّد تمويـه ؛ لإبعـاد عيـون الإسرائيليين عن هدفنا الحقيقى .. هدف (لندن) .

نجحت العبارة الأخيرة ، فى جذب انتباه (صبرى) فى شدة ، فجلس على المقعد المواجه لمكتب المدير ، وهـو يقـول فـى اهتمام :

ـ هدف (لندن) ؟!

أومأ المدير برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ إنه أمر بالغ الأهمية والسرية ، وصلنا من أهم عملائنا فى (تل أبيـب) ، يقول : إن الإسـرائيليين يقومون بتنفيذ خط من الأنابيب ، بطول القناة ؛ لضخ مادة حارقة ، على سطح مياههـا ، إذا ما حاولت قواتنا العبور .

انعقد حاجبا (صبرى) ، وهو يقول :

ـ يا إلهى .. هل يعتزمون حرق رجالنا ؟!

أشار المدير بسبابته ، قائلاً :

ـ يحاولون منعنا من شن الحرب ، بأى حال من الأحوال ، وتدمير قواتنا ، فى حالة الهجوم ..

تراجع (صبرى) فى مقعده ، وبدت عليه علامات التفكير بضع لحظات ، قبل أن يعتدل ، قائلاً فى اهتمام :

ـ وهل هذا الخبر حقيقى ؟

أجابه مدير المخابرات فى اهتمام أكثر :

ـ هذا هو السؤال ، الذى نحتاج إليك لإجابته .

وعاد ينهض من مقعده ، ويتجه إلى نافذة حجرته ، متابعًا :

ـ عميلنا يقول : إن الإسرائيليين سيعلنون الخبر ، خلال ثلاثة أيام ، عبر مصادرهم الرسمية ، ولكن هذا لا يعنى أنه صحيـح .. ربما كان نوعًا من الحرب النفسية ، أو الخداع المدروس فحسب .

نهض (صبرى) بدوره، قائلاً:

- هذا أمر محتمل للغاية، وليست أوّل مرة يستخدم فيها.. ففكرة إشعال النار على سطح الماء فكرة قديمة، ابتكرها ماجور، من ضباط المخابرات البريطانية، يُدعى (جون بيكر هوايت)، فى صيف 1940م، ففى تلك الفترة، كان (بيكر) مسئولاً عن الحرب النفسية، ضد القوات النازية، التى ترسم خطتها لغزو الجزر البريطانية، وضمن برنامج الإعداد، سافر (بيكر) إلى خليج (سانت مارجريت)، بالقرب من (دوفر)؛ للاطمئنان على التواجد الأمنى هناك، ولكنه لم يكد يصل إلى وجهته، حتى هوى قلبه بين قدميه.

استدار المدير، يتطلّع إلى (صبرى)، الذى تابع فى اهتمام:

- لقد كان الشاطئ كله تحت حماية فصيلة واحدة، من حملة البنادق، ولديها مدفعان من طراز (برين)، ومدفع آلى واحد، من طراز (فيكرز)، أما المدفعية المعاونة، فمجرَّد بضعة مدافع فرنسية قديمة، من عيار خمسة وسبعين مليمترًا، ولكل مدفع ذخيرة محدودة، بعشر طلقات فحسب، مما يعنى أنه

لو هبط النازيون فى تلك البقعة، فسيلفون القصر الملكى فى (لندن)، ويرفعون عليه العلم النازى، خلال أسبوع واحد لا أكثر.

لم يرفع المدير بصره عنه، وهو يعود إلى مقعده، فى حين أكمل (صبرى)، بنفس الاهتمام:

- وعندما تسرَّب اليأس إلى قلبه، وقع بصره على مشهد مدهش.. مشهد أنابيب قديمة صدئة، تمتد بطول الشاطئ، على مسافات منتظمة، والبترول يندفع منها، بفعل مضخات قديمة، فترسل ألسنة لهب طوال الوقت.. وهنا قفزت الفكرة إلى رأسه، وتخيَّل خطًا من النيران بطول الشاطئ، يشتعل على سطح البحر، ويلتهم قوات الغزو.. ولما كان تنفيذ هذه الخطة مستحيلاً، من الناحية المادية، فقد راودته، كخبير فى الحرب النفسية، فكرة تحويلها إلى خطة؛ لنشر الذعر فى صفوف القوات النازية، وهكذا، أطلق (بيكر) الشائعة، التى منعت الألمان بالفعل، من التفكير فى خطة الغزو(*).

(*) قصة حقيقية.

تطلّع إليه المدير فى إعجاب واضح ؛ فلطالما كان معجبًا بثقافته العامة ، والمخابراتية على وجه الخصوص ..

وفى هدوء ، قال :

ـ بالضبط يا (صبرى) ، وهناك احتمال كبير ، أن يكون ما يعلنه الإسرائيليون ، أو ما يعتزمون إعلانه ، مجرد حرب نفسية .

تساءل (صبرى) :

ـ وكيف يمكننا حسم الأمر ؟!

بدا الأمر كأن مدير المخابرات كان ينتظر هذا السؤال ، وهو يجيب فى سرعة :

ـ أحد مصادرنا فى (لندن) ، أكد لنا أن الوثائق الخاصة بهذا الأمر ، والتى يمكن أن تحسمه تمامًا ، موجودة فى السفارة الإسرائيلية هناك .

انعقد حاجبا (صبرى) ، وهو يقول :

ـ هل من المفترض أن أتولى عملية إحضارها ؟!

أشار المدير بسبابته ، قائلاً :

ـ بالضبط .

ثم بدا شديد الاهتمام ، وهو يتابع :

ـ ستسافر إلى (لندن) بهويتك الحقيقية ، مع جواز سفر دبلوماسى ، يقول : إنك ستتولى منصب الملحق العسكرى الجديد ، فى سفارتنا هناك ، ولكن مهمتك الفعلية هى أن تدخل السفارة الإسرائيلية ، وتحصل على تلك الوثائق ، وتلتقط لها صورًا واضحة ، ثم تعيدها إلى موضعها ، دون أن يشعر مخلوق واحد أننا قد حصلنا عليها ، وإلا أدرك الإسرائيليون أننا كشفنا سرهم ، وعمدوا إلى خطة جديدة ..

والتقى حاجبا (صبرى) فى شدة ..

فالمهمة ، للوهلة الأولى ، تبدو مستحيلة ..

مستحيلة تمامًا .

ولكنها حتمية ..

فعليها ، يعتمد مستقبل المواجهة كلها ..

إما حرب ..

وإما لا حرب ..

وهذا يعنى أن (مصر) تناديه ، ولابد أن يلبى النداء .. مهما كان الثمن ..

شىء واحد جال بعقله ، في تلك اللحظة ..

ابنه (أدهم) ..

ولسبب ما ، شعر أنه لن يراه مرة ثانية أبدًا ..

ولكنه لم يتصوّر قط أن هذا الشعور ليس مجرّد وهم ..

إنه حقيقة ..

حقيقة حتمية ..

للأسف .

* * *

13ـ خطــــة ..

تألّقت عينا (إليعازر) ، وهو يواجه فريق المستعربين الذى يقف أمامه ، ويشير إلى رسم تخطيطى لقاعة المؤتمر ، قائلاً :

ـ منذ لحظة خروج الوزير المصرى ، من سفارة دولته ، وحتى يصل إلى مقر المؤتمر ، سيحيطونه بحراسة مشدّدة ، من رجال لا يتردّدون فى الموت ، من أجل حمايته ؛ مما يجعل محاولة اغتياله أمرًا عسيرًا ، وغير مأمون الجانب ؛ لذا ، فسنتركه يمضى فى رحلته بسلام ، ثم ننتظره هنا .

قال الكلمات الأخيرة ، وهو يشير إلى بهو المؤتمر ، فى الرسم التخطيطى ، فغمغم أحد الرجال فى دهشة :

ـ فى قاعة المؤتمر ؟!

عاد (إليعازر) يواجههم ، وهو يقول :

ـ المسافة الوحيدة ، التى سوف يسيرها الوزير ، بدون حراسة ، هى المسافة بين مدخل المبنى ، وحتى قاعة المؤتمر ،

مرورًا بالبهو ؛ ولهذا فليس أمامنا سوى أن ننتظره هناك .. فى البهو .

تبادل الرجال نظرة دهشة متوترة ، قبل أن يقول أحدهم :

ـ أخبرتنا من قبل أن الشرطة الفرنسية تؤمّن قاعة المؤتمر ، على نحو لم يحدث من قبل ، وكل العاملين بالمكان لا يمكنهم دخوله ، إلا بواسطة بطاقات خاصة غير قابلة للتزوير ، فكيف يمكننا أن نصل إلى الوزير المصرى هناك ؟!

اعتدل (إليعازر) ، وقال :

ـ الشرطة الفرنسية تؤمّن المكان كله بالفعل ، والبطاقات غير قابلة للتزوير ، ونظم الأمن بالغة الدقة ، ولكن هذا لا يعنى أنه لا توجد ثغرة ما .

سأله آخر :

ـ وأين هى ؟

لم يجب (إليعازر) سؤاله ، وإنما شدّ قامته أمامه ، والتمعت عيناه ، وهو يقول فى حزم :

ـ الواقع أن لدى خطة .

قالها ، والتمعت عيناه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

لم تكد الطائرة القادمة من (موسكو) ، تهبط فى مطار (أورلى) فى (باريس) ، حتى غادرها شاب فى منتصف العشرينات تقريبًا من العمر ، ولكنه يبدو أصغر سنًّا ؛ بسبب وجهه الطفولى الملامح ، وبدنه المكتنز على نحو ما ..

ولقد غادر الشاب المطار ، فور إنهاء إجراءاته ، ووقف يتلفّت حوله ، كأنه فى انتظار شخص ما ، حتى توقّفت أمامه واحدة من سيارات الأجرة ، وقال سائقها ، صاحب الشارب الضخم :

ـ (كاليه) ؟!

التفت إليه الشاب فى لهفة ، وأجاب فى سرعة :

ـ بل (ليل)[*] .

أشار إليه السائق ، قائلاً :

ـ سنصل بسرعة الصاروخ .

ابتهج الشاب ، واتجه فى حماس إلى المقعد الأمامى من السيارة ، ولكن السائق كثيف الشارب ، قال فى شىء من الحزم :

ـ المقعد الخلفى للسادة .

أطاعه الشاب على الفور ، وانتقل إلى المقعد الخلفى ، ولم يكد يفعل ، حتى انطلقت السيارة على الفور ، فأطلق الشاب المكتظ ضحكة مرحة مجلجلة ، وقال :

ـ أشعر كأننا جزء من فيلم ، من أفلام الجاسوسية .

غمغم (أدهم) ، الذى يحتل مقعد السائق :

(*) (كاليه) و(ليل) : مدينتان فرنسيتان شهيرتان .

ـ إننا كذلك بالفعل .

اتسعت عينا (قدرى) ، وهو يغمغم :

ـ حقًا ؟!

قال (أدهم) ، دون إضاعة الوقت :

ـ لقد اتصلتُ بك فى (موسكو) ، وطلبت تعاونك ؛ لأن الأمر خطير بالفعل .. خطير للغاية .

بدت دهشة قلقة ، على وجه (قدرى) الشاب ، وهو يقول :

ـ رباه !.. إلى هذا الحد ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـ وربما أكثر من هذا .

اتسعت عينا (قدرى) أكثر ، وتراجع فى مقعده ، وهو يتساءل فى حيرة :

ـ وما دام الأمر كذلك ، فلماذا لم تتوله المخابرات نفسها ؟!

صمت (أدهم) لحظة ، ثم قال :

- ربما كان الأمر أعقد من أن أشرحه لك ، ولكنني أطرح عليك سؤالاً واحداً ... هل أنت على استعداد لمعاونتي ؟

أطلق (قدري) ضحكة أخرى مجلجلة ، قبل أن يقول في مرح :

- هل تظنني أتيت من (موسكو) إلى هنا ، لمشاهدة ليل (باريس) ؟!

ابتسم (أدهم) في امتنان ، وقال :

- لست أدري كيف أشكرك !

لوّح (قدري) بيده ، قائلاً :

- أنا واثق من أنك ستجد ألف وسيلة فيما بعد .. ولكن أخبرني الآن ، إلى أين نتجه ؟.. إلى فندقك ؟

ابتسم (أدهم) أكثر ، وهو يقول :

- بل إلى منزل آمن . منزل من منازل المخابرات الإسرائيلية .

واتسعت عينا (قدري) في دهشة ...

منتهى الدهشة ..

* * *

« فيم تفكّر ؟... »

ألقى (حسن) السؤال على (صبري) في خفوت ، وهما داخل الطائرة ، التي تنطلق من (مصر) إلى (إنجلترا) ، فأجابه (صبري) ، دون أن يفتح عينيه :

- في (أدهم) .

صمت (حسن) لحظات مشفقاً ، قبل أن يقول :

- المفترض ألا يشغلك شيء ، سوى المهمة التي نحن بصددها .

قال (صبري) في توتر :

- لا تنس أنه ابني .

قال (حسن) :

- لا يمكننى أن أنسى هذا ، ولكننا لا نملك فعل أى شىء لـ (أدهم) ؛ فهو فى دولة أخرى .

غمغم (صبرى) :

- دولة ، لن يفصلها عنا سوى بحر (المانش) .

أجابه (حسن) :

- ولكنها دولة أخرى ، على أية حال ، وكل رجالنا فيها يبحثون عنه وسيسعون لحمايته ، مهما كان الثمن .. لا تنس أن الجهاز قد اعتبره بطلاً قوميًا .

قال (صبرى) فى مرارة :

- المهم أن يكون بطلاً قوميًا حيًا !

ربّت (حسن) على كتفه ، قائلاً :

- سيكون كذلك بإذن الله .

حاول (صبرى) أن يكتفى بهذا ، إلا أنه لم يستطع أن يكتم توتره الشديد ، وهو يقول :

- لماذا أشعر كأننى لن أراه مرة ثانية إذن ؟!

قال (حسن) ، محاولاً تهدئته :

- مجرد شعور سلبى ، ولّده قلقك الشديد عليه .

تنهّد (صبرى) ، وغمغم :

- ربما .

ربّت عليه (حسن) مرة أخرى ، وهو يقول :

- المهم الآن ، هل وجدت وسيلة ، لتنفيذ ما نسعى إليه ؟

أجابه (صبرى) :

- إننى أدرس الأمر من كل جوانبه ، منذ أبلغتُ به ، وما زال التنفيذ يبدو لى مستحيلاً .

غمغم (حسن) :

- فى مهنتنا ، لا نؤمن بكلمة مستحيل .

قال (صبرى) فى حزم :

- بالطبع .

ثم أسبل جفنيه مرة أخرى ، وحاول أن يزيح صورة ابنه من ذهنه ، ولكن الصورة احتلت كيانه كله بضع لحظات ، مع كومة من التساؤلات ..

تُرى ما الذى غرس (أدهم) ، فى مواجهة شرسة مع (الموساد) ؟!

كيف حدث هذا ؟!..

ومتى ؟!

وأين هو الآن ؟!..

أين ؟!..

اختلطت الأفكار فى رأسه ، ما بين ابنه ومهمته ، و ...

فجأة ، تألقت نقطة ما فى ذهنه ..

نقطة ، أضاءت عقله كله ..

وبسرعة مدهشة ، راح عقله يفكّر ..

ويدرس ..

ويخطّط ..

ويرسم ..

و ...

« ليس مستحيلاً !.. »

نطقها فى حماس ، فالتفت إليه (حسن) فى لهفة ، جعلته يقول مبتسمًا :

ـ أنت على حق .. فى عالمنا لا يوجد مستحيل .

سأله (حسن) ، بمنتهى الخفوت واللهفة :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

ابتسم (صبرى) ، وأجاب :

ـ لدى خطة .

واتسعت ابتسامته ..

الغامضة .

* * *

لم يستطع (قدرى) كتمان دهشته الشديدة ، وهو يدخل مع (أدهم) ، ذلك المنزل الآمن الإسرائيلى ، ويحدق فى (ماير) ، المقيَّد فى إحكام ، مع كمامة متينة ، على مقعد ثقيل ، فى ركن إحدى حجراته ، فهتف :

ـ من هذا ؟!

أجابه (أدهم) ، فى لا مبالاة :

ـ قاتل إسرائيلى .

اتسعت عينا (قدرى) فى شدة ، وهو يقول مذعورًا :

ـ قاتل ؟!

أجابه (أدهم) ، وهو يُخرج بطاقة صغيرة ، من حقيبته :

ـ قاتل مُستأنس .. لقد روَّضته ..

انعقد حاجبا (ماير) فى غضب ، عندما سمع عبارة (أدهم) ، وندت من خلف كمامته زمجرة وحشية ، انتفض لها جسد (قدرى) ، وهو يقول فى ذعر :

ـ أأنت واثق من أنه مقيَّد بإحكام ؟!

قال (أدهم) ، وهو يناوله البطاقة :

ـ كلَّ الثقة .. أبى علمنى خمس طرق مؤكَّدة لهذا ، ولو فحصت الكدمات فى معصميه ، ستتأكَّد من أنه قد حاول التخلُّص من قيوده ، ولكنه لم يفلح فى هذا .

تمتم (قدرى) :

ـ أتعشَّم هذا .

ثم تطلَّع إلى البطاقة ، التى ناوله إياها (أدهم) ، وتساءل :

ـ ما هذا بالضبط ؟

أجابه (أدهم) :

ـ بطاقة أمنية ، يفترض أنها غير قابلة للتزوير .

قال (قدرى) ، وهو يفحص البطاقة :

ـ كل شىء قابل للتزوير .. المهم الأصابع التى تقوم بهذا .

أشار (أدهم) بسبّابته ، قائلاً :

ـ بالضبط .. ولهذا استدعيتك .

تردّد (قدرى) لحظة ، وغمغم :

ـ لست أدرى ما إذا كان بإمكانى أنْ ..

قاطعه (أدهم) فى حزم :

ـ لابد أن يكون بإمكانك يا صديقى ... أمن (مصر) وسلامتها يتوقفان على هذا .

لم يكد (قدرى) يسمع اسم (مصر) ، حتى التمعت عيناه ، وانتفض شىء ما فى كيانه ، واعتدل وكأنه فى ثكنة عسكرية ، وقال :

ـ فى هذه الحالة ، يمكننى استبدال أية صورة تشاء بهذه الصورة .

ربّت (أدهم) على كتفه ، قائلاً :

ـ هذا يكفى ..

سأله (قدرى) ، وهو يبدأ عمله بالفعل :

ـ ولكن كيف حصلت على بطاقة كهذه ؟

صمت (أدهم) لحظة ، تنهّد خلالها ، قبل أن يجيب :

ـ لقد استلزم هذا مغامرة ليلية ، ربما أقصُّها عليك يومًا ما .

ابتسم (قدرى) ، قائلاً :

ـ وربما لا .. المهم أمن وسلامة (مصر) ..

سمع (مايز) حديثهما ، وامتلأت نفسه بمزيج من السخط والغضب ..

إنه لم يفشل فى مهمة واحدة ، منذ بدأ عمله ، وها هو ذا يخسر لأول مرة ، أمام صبى ، لم يبلغ العشرين من عمره بعد ..

صبى يتصرّف كأقوى وأحكم الرجال ..

والأمر الذى يحنقه أكثر ، أن هذا الصبى يفعل كل ما يفعله ..

من أجل (مصر) ..

* * *

لم يكد رجل المخابرات الإسرائيلية فى (لنـدن) (دافيد جراهام) ، يتلقى ذلك التقرير الأخير ، من عيونه فى مطار (هيثرو) ، حتى هبَّ من خلف مكتبه ، وقال فى انفعال شديد :

ـ (صبرى) . (صبرى) هنا ؟!. فى (لندن) ؟!

أجابه مساعده الأول :

ـ وصل مع زميل له ، منذ نصف ساعة فحسب ، ورأيت أن أبلغك ، فور علمى بالأمر .

انعقد حاجبا (جراهام) فى شدة ، وهو يتساءل :

ـ ولكن لماذا ؟!.. ما الذى أتى به إلى هنا ، فى هذه الفترة ؟!

أجاب مساعده :

ـ جواز السفر الدبلوماسى ، الذى وصل به ، يقول : إنه جاء لاستلام منصبه ، كملحق عسكرى فى السفارة المصرية هنا .

غمغم (جراهام) فى شك :

ـ ملحق عسكرى ؟!.. (صبرى) ملحق عسكرى ؟!..

لماذا ؟!.. لماذا تتخلَّى المخابرات المصرية عن واحد من أفضل رجالها ، وهى تخطط لاستعادة أرضها ؟!.. هذا لا يبدو لى منطقيًا .

قال مساعده فى حذر :

ـ منصب الملحق العسكرى يكون ، فى معظم الأحيان ، مرادفًا لمنصب مندوب المخابرات ، فى ...

قاطعه (جراهام) فى صرامة :

ـ مستحيل ! . أى منطق فى الوجود ، لا يبرِّر التخلِّى عن ضابط عبقرى ؛ من أجل مهمة ، قد يقوم بها من هو أقل كفاءة منه . لا .. (صبرى) هنا لهدف آخر .. هدف أكبر .

ازدرد مساعده لعابه ، وتمتم :

ـ على أية حال ، سنتولى نحن مهمة البحث عن هذا ، لحين عودتك من ...

قاطعه (جراهام) مرة أخرى :

- سأتولى هذا الأمر بنفسي .

قال المساعد في دهشة :

- ولكن زوجتك أنجبت أمس ابنتك الأولى (سونيا) ، ومن المفترض أن تسافر بعد ساعة واحدة ، إلى (تل أبيب) ؛ لكي ...

وللمرة الثالثة ، قاطعه (جراهام) ، بمنتهى الصرامة :

- ابنتي (سونيا) يمكنها أن تنتظر ؛ فعمرها كله لا يتعدى يومًا واحدًا ، ولكن ما جاء (صبري) من أجله ، لا يمكن أن ينتظر .

كان المساعد يعلم أنه لا طائل من المناقشة ، فقال في استسلام :

- لا بأس يا سيدي .. سنبدأ في مراقبة رجل المخابرات المصري ، و ...

كان الأمر يبدو ، كأن (جراهام) قد اعتاد مقاطعة محدثه ، وهو يقول :

- مراقبته ؟!.. لا .. لن نضيع الوقت في مراقبة رجل مخابرات محنك ، اعتاد الإفلات من كل مراقبة يمكنك تخيلها .

سأله المساعد في اهتمام :

- ماذا سنفعل إذن ؟

قال (جراهام) ، وهو يجلس خلف مكتبه ، ويفتح درجه الأيمن العلوي :

- سننتهز الفرصة ، ونحسم الأمرين .. أمر ما جاء (صبري) من أجله .. وأمر (صبري) نفسه .

نطق الشق الأخير ، وهو يلتقط من درج مكتبه مسدسًا .. قويًا ...

* * *

شد رجل الأمن الفرنسي (جان روشيه) قامته ، وهو يستعد لمغادرة منزله ، متجهًا إلى مقر المؤتمر ، الذي تتابعه (باريس) ، ويتابعه العالم كله ؛ لما يمكن أن يسفر عنه من نتائج ، ذات تأثيرات سياسية وعسكرية عالمية ..

وبينما يحكم قُبعته الرسمية على رأسه ، سمع رنين جرس باب شقته ، فغمغم فى ضيق :

ـ من يمكن أن يأتى ، فى هذه الساعة المبكّرة ؟!

اتجه إلى الباب فى سرعة ، وهو يَهُمّ بمواجهة القادم فى صرامة ، ولكنه لم يكد يفتح الباب ، حتى أطلق أحدهم رذاذًا عنيفًا فى وجهه ، جعله يتراجع فى حركة حادة ، وهو يهتف ، محاولاً التقاط مسدسه ، ولكن قبل أن يفعل ، هوت لكمة عنيفة على فكه ، ألقته أرضًا ، وجثم شخص قوى ثقيل على صدره ، وأمسك ذراعيه فى قوة ، فى حين هوت لكمة قوية ، من شخص ثان ، على أنفه مباشرة ..

كان يحاول أن يقاوم ..

أن يصرخ ..

ولكن خصميه كانا أقوى منه بكثير ، وتأثير ذلك الرذاذ المخدّر كان يدير رأسه فى عنف ، حتى إنه ، مع اللكمة الثالثة ، غاب عن الوعى تمامًا ..

وفى هدوء ، وبعد أن فقد (روشيه) وعيه تمامًا ، دلف (إليعازر) فى هدوء إلى شقته ، وخلفه رجل تنكّر فى هيئة تشبه هيئة رجل الأمن الفرنسى تمامًا ، فى حين نهض المستعربان ، اللذان أفقداه الوعى ، وأحدهما يقول :

ـ تم تنفيذ المهمة يا أدون (إليعازر) .

ابتسم (إليعازر) ، وتألّقت عيناه فى ظفر ، وهو يقول :

ـ عظيم .. الآن أصبحنا نسيطر على مدخل مقر المؤتمر الخلفى ، الذى يتولى (جان روشيه) أمره ، وبواسطة البديل ، ستمرر طاقمكم كله ، إلى داخل المقر .

غمغم شبيه (روشيه) :

ـ فكرة عبقرية أيها القائد .. بدلاً من أن نحاول تزييف بطاقات الأمن شبه المستحيلة ، سنزيّف المسئول عن التحقّق منها .

قال (إليعازر) :

ـ بالضبط .. والآن ، خذ بطاقته الأمنية ، وانطلق إلى مقر المؤتمر ، وسيأتى رفاقك بعد نصف ساعة ، مع أسلحتهم ، لتمرّرهم إلى الداخل ، وعندما يعبر الوزير المصرى البهو ...

لم يتم عبارته ، واكتفى بفرقعة سبابته وإبهامه ، معبرًا عما يعنيه ، وبدا من الواضح أن الساعات التالية ، ستشهد إراقة الدماء ..

الكثير من الدماء ..

الكثير ..

جدًا .

* * *

14ـ دمـــاء ..

لم يكد (صبرى) يصل إلى مقر السفارة المصرية فى (لندن) ، حتى أجرى اتصاله بسفارتنا فى (باريس) ، وسألهم عن تطور الأمور ، فأجابه الملحق العسكرى هناك فى اهتمام :

ـ لم نعثر عليه بعد يا سيد (صبرى) ، ولكن تقرير ملحقنا الطبى يقول : إن تلك الشلاّمى ، التى وجدناها فى حجرته بالفندق ليست له حتمًا ؛ لأنها تخص رجلاً فى أوائل الأربعينات من عمره ، ولقد فحصنا ما عليها من بقايا بصمات ، ووجدنا أنها تخص (ماير) .

بدت الدهشة فى صوت (صبرى) ، وهو يقول :

ـ (ماير) ؟!.. قاتل (الموساد) ؟!

أجابه الملحق العسكرى :

ـ بالضبط .. والدماء نفسها ليست من فصيلة دم ابنك .

أغمض (صبرى) عينيه ، متمتمًا :

- حمدًا لله !

ثم عاد يفتحهما ، متسائلاً :

- ولكن أين يمكن أن يكون ، لو أنه يسيطر على الموقف ، كما توحى كل الشواهد ؟!

أجابه الملحق العسكرى فى شىء من التوتر :

- سنبحث إجابة هذا السؤال ، بعد أن تنتهى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر يا سيدى ، فالوزير يستعد للذهاب الآن ، ولابد لنا من تأمينه ..

الوزير .. والمؤتمر .. والتأمين .. و(ماير) ..

كل تلك المعطيات تداخلت ، فى رأس (صبرى) ، قبل أن يقول :

- مهلاً .. هناك احتمال واحد ، لتواجد (أدهم) .

كان يُبلغ الملحق العسكرى ، بما دار فى خَلَده ، عندما دلف (حسن) إلى الحجرة فى هدوء ، وجلس صامتًا ، حتى انتهى (صبرى) ، وأنهى الاتصال ، وعندئذ سأله :

- هل اطمأننت على (أدهم) ؟

رمقه (صبرى) بنظرة جانبية ، وهو يقول :

- أحاول هذا .

بدا (حسن) متعاطفًا مع زميل عمره ، وهو يقول :

- اطرح كل الأفكار التشاؤمية عن ذهنك يا صديقى ، فى هذه الظروف بالذات ، وثق فى أنك سترى ابنك ثانية ، وليس كما تتصوَّر .

وأدار (صبرى) عينيه إليه ، فى حركة حادة ، دون أن يجيب ..

ربما كان (حسن) على حق ، وكان (أدهم) بخير ..

ولكن ذلك الشعور ، ما زال يراوده بشدة ..

شعور أنه لن يلتقى به مرة أخرى ... أبدًا ..

كان هذا يملأ كيانه ، ويسيطر على كافة مشاعره ، حتى إنه قال لزميله (حسن) ، فى اهتمام شديد :

- أريد أن أشرح لك كل تفاصيل الخطة ، التى وضعتها ؛ للحصول على الوثائق الإسرائيلية ، وطريقة تنفيذها .

قال (حسن) فى دهشة :

- طريقة تنفيذها ؟!.. أن تتولى التنفيذ بنفسك ؟!

صمت (صبرى) لحظة ، قبل أن يقول ، فى شىء من الصرامة والتوتر :

- من يدرى ؟!

شعر (حسن) بالدهشة ، وهو يتطلع إليه ، ثم قال :

- لا بأس .. اشرح لى كل ما تريد .

بدأ (صبرى) يشرح له خطته ، وذلك الشعور فى أعماقه يتضاعف ..

ويتضاعف ..

ويتضاعف ..

* * *

لم يجد بديل (جان روشيه) صعوبة كبيرة ، فى احتلال مكانه ، عند الباب الخلفى ، لمقر المؤتمر ؛ فالكل كان منشغلاً فى إعداد المكان ؛ لاستقبال وزراء الخارجية ، حتى إنه يكفى أنْ ترتدى زيًا رسميًا ، وتُبرز بطاقة أمنية ، وتعرف أين تتجه ، حتى يمكنك أن تتجول فى المكان كما تشاء ..

ولقد تولى البديل تأمين المدخل الخلفى ، وأصرّ على فحص البطاقات الأمنية بنفسه ، معلناً هذا أمام رجاله ، بأنه يشك فى محاولة تزوير محتملة ..

وعبر هذا ، أمكنه تمرير خمسة من المستعربين ، مع مسدساتهم ، و(إليعازر) نفسه ، وكلهم يرتدون ثياب مشرفى النظام فى المؤتمر ، وعلى صدورهم بطاقات بهذا المعنى ..

ولم يعد عليهم بعد هذا ، سوى انتظار وصول الوزير المصرى ..

وفى القاعة ، كان يتولى التأمين المفتش (لوبان) ، من إدارة الأمن العام الفرنسى ، ولقد بدا شديد التوتر ، وهو يقول لمساعده فى عصبية :

ـ كيف يمكن تأمين مكان مزدحم ، على هذا النحو ؟!

غمغم مساعده :

ـ يمكننا فقط أن نحاول .

قال (لوبان) فى حدة :

ـ نحاول ماذا ؟! يقولون : إن المكان شديد الأهمية ، والحدث شديد الخطورة ، ثم يكدسون البشر فيه تكديسًا .. لجنة استقبال ، ولجنة إشراف ، وطاقم تنظيم ، وأطقم حراسة لكل وزير ، وأطقم خدمة ، هذا بالإضافة إلى رجال النظافة ، والصيانة .. كم سنراقب بالضبط ؟!

هزّ المساعد كتفيه ، وقال :

ـ المفترض أن رجال حراسة المداخل ، يقومون بمهمة التأكُّد من أن كل من يدخل إلى المكان ، يحمل هوية أمنية خاصة ، و ...

قاطعه (لوبان) فجأة ، وهو يحدّق أمامه ، قائلاً :

ـ أمن الممكن هذا ؟!

التفت إليه فى دهشة قلقة :

ـ من الممكن ماذا ؟!

أشار (لوبان) إلى أحد رجال الأمن الشبان ، يسير فى المكان بزيه الرسمى ، وشاربه الرفيع ، يتفحّص الحاضرين فى اهتمام ، وقال فى انفعال :

ـ هذا الشاب هناك .. الضابط الشاب .. ألم تره من قبل ؟!

تطلّع المساعد إلى الضابط الشاب فى حيرة ، قبل أن يغمغم :

ـ لست أعتقد هذا .

قال (لوبان) فى غضب :

ـ ماذا أصاب ذاكرتك ؟!.. اعتصر ذهنك يا رجل .. ألم تذكره ؟! حاول أن تزيل ذلك الشارب المستعار عن وجهه ، وستعرفه على الفور .. إنه ذلك الشاب المصرى ، الذى يقيم وحده فى فندق (ريتز) ، حيث قتلوا المدير الليلى .

اتسعت عينا المساعد فى دهشة ، وحدّق مرة أخرى فى ذلك الشاب ، وهو يقول :

- مستحيل !.. وكيف نجح فى الدخول إلى هنا ؟!

تحسّس (لوبان) مسدسه ، وهو يقول فى انفعال :

- إنه ليس شابًا عاديًا .. لقد عرفت هذا ، منذ أوّل لحظة وقعت فيها عيناى عليه .

كرّر المساعد ، فى دهشة أكثر :

- ولكن كيف اخترق نظم الأمن ، ووصل إلى هنا ؟!

قال (لوبان) في حزم ، وهو يتجه نحو (أدهم) ، المتنكّر فى ثياب أحد ضباط أمن المكان :

- هو سيخبرنا بنفسه ..

فى نفس اللحظة ، التى لحق فيها المساعد بمفتشه ، كان (إليعازر) يلقي آخر تعليماته للمستعربين الخمسة ، قائلاً :

- عندما يصل الوزير ، سيصرخ اثنان منكم بالعربية : « الموت للخائن » ، ويطلقان رصاصاتهما عليه ، فى حين يطلق الآخرون رصاصاتهم فى الهواء ؛ لإثارة موجة من الفزع والاضطراب ، تؤمّن لنا الهروب ، وسنخرج من الباب الرئيسى ،

حيث ستنتظرنا سيارة ، تحمل أرقامًا مسجلة باسم أحد الفلسطينيين المقيمين هنا .

أومأ الخمسة برءوسهم صاغرين ، فاعتدل هو ، وتألّقت عيناه ، وهو يغمغم ، وكأنه يحدّث نفسه :

- ينبغى أن يعلم الجميع ، أن (إليعازر) لا يفشل أبدًا !

مع عبارته ، كان (لوبان) يضع يده على كتف ضابط شاب ، وسط زحام المكان ، وهو يقول فى صرامة :

- أرنى أوراقك .

استدار إليه الضابط الشاب فى دهشة ، لم تقلّ عن دهشة (لوبان) نفسها ، وهو يقول فى عصبية :

- من أنت ؟!

أجابه الضابط فى توتر :

- (جان ديلون) يا سيّدى .. ملازم فى ...

قاطعه فى عصبية :

ـ وأين الآخر ؟!

أطلّت الحيرة من عينى الضابط ، وهو يغمغم :

ـ أى آخر ؟!

تلفّت (لوبان) حوله فى عصبية ، حتى لمح (أدهم) ، وهو يصعد إلى الطابق الثانى من المقر ، فأشار إليه هاتفًا :

ـ ها هو ذا .

كان يهم بالاندفاع خلفه ، ولكن مساعده أمسك معصمه فى قوة ، هامسًا فى توتر شديد :

ـ مهلاً يا سيّدى .. لو أنك طاردته ، على نحو عنيف ، ستثير بلبلة رهيبة فى المكان .. دعنا نلحق به ، ونحاول إنهاء الموقف فى هدوء .

كان (لوبان) يرغب فى إطلاق النار على رأس (أدهم) ، ولكن حديث مساعده بدا منطقيًا وعقلانيًا ؛ لذا فقد تماسك ، واتجه معه إلى السلم ، للحاق بـ(أدهم) ، الذى وقف فى شرفة الطابق العلوى ، يراقب المدخل ، فى اهتمام شديد ..

وبينما يفعل ، فوجئ بفوهة مسدس تلتصق بجانبه ، وصوت المفتش (لوبان) خلفها ، يقول فى صرامة عصبية :

ـ أوراقك أيها المدّعى .

عرفه (أدهم) على الفور ، وأدرك أن أمره قد انكشف ، وأن تنكّره لم يكن كافيًا .. وبسرعة ، راح ذهنه يبحث عن مخرج ..

أى مخرج ..

ولكن قبل أن يصل إلى فكرة واضحة ، تناهى إلى مسامعه صوت حركة واضحة .. لقد وصل الوزير المصرى إلى المكان ..

ودخل إلى البهو ...

وهنا ، تحرّك (إليعازر) ورجاله ..

بمنتهى السرعة .

* * *

أشعل (دافيد جراهام) سيجارته ، وهو يعقد حاجبيه فى توتر ، داخل السيارة التى تقف بالقرب من السفارة المصرية فى (لندن) ، وغمغم لمساعده الجالس إلى جواره :

ـ هل احتلّ الجميع مواقعهم ؟!

أجابه مساعده :

ـ كل منهم فى مكانه يا سيّدى ، يستعدون لتنفيذ المهمة .

نفث (جراهام) دخان سيجارته فى قوة ، قبل أن يقول فى صرامة ، تحمل مزيجًا من الشماتة والتشفى :

ـ ستكون أمتع مهمة قمتُ بها ، فى حياتى كلها ؛ فـ (صبرى) هذا من أقوى رجال المخابرات المصرية ، الذين جشّمونا متاعب ، لا حصر لها ، منذ إنشاء جهاز المخابرات العامة المصرى .

ثم عضّ شفته السفلى ، قبل أن يضيف فى مقت :

ـ أنا شخصيًا تلقيت على يديه هزيمتين ، ما زلت أشعر بحنقهما ومرارتهما ، حتى لحظتنا هذه .. ولابد أن يدفع ثمنهما .. لابد !

شعر مساعده بمدى الغضب والمقت اللذين يشعر بهما ، فتمتم مجاملاً :

ـ نعم .. لابد .

راح (جراهام) ينفث دخان سيجارته فى عصبية ، وهو يراقب مبنى السفارة ، فى انتظار ظهور (صبرى) ، ثم غمغم :

ـ سأعتبرها هدية مولد ، لابنتى (سونيا) ، التى لم أرها بعد .

غمغم مساعده :

ـ ربما تراها قريبًا .

بدا عليه الفخر ، وهو يقول :

ـ أمها تقول : إنها باهرة الحسن ، وستخلب لُب الفتيان ، عندما تبلغ الثالثة عشرة من العمر .

حاول المساعد أن يبتسم ، وهو يغمغم :

ـ ربما تصبح ممثلة سينما ، أو عارضة أزياء فى المستقبل .

أطفأ (جراهام) سيجارته ، وهو يقول فى حزم :

ـ بل أريد أن تصبح فتاة (موساد) .

التفت إليه مساعده فى دهشة ، وهمّ بقول شىء ما ، عندما انتفض (جراهام) فجأة ، وهو يقول ، فى انفعال جارف :

ـ ها هو ذا !

التفت المساعد ، فى حركة حادة ، ووقع بصره على (صبرى) ، وهو يغادر بوابة السفارة ، ويقف أمامها ، فى انتظار وصول زميله (حسن) ، الذى انهمك فى الحديث مع سكرتير السفارة ، عند باب المبنى ..

وبكل انفعاله ، هتف (جراهام) ، عبر دائرة لاسلكية مغلقة :

ـ ظهر الهدف .. نفذوا المهمة ..

استقبل الهتاف ستة من قتلة (الموساد) المحترفين ، فى ستة أماكن مختلفة ، عبر أجهزتهم اللاسلكية ..

وفى وقت واحد ، تحرك الستة نحو الهدف ..

نحو (صبرى) ..

مباشرة ..

وفى قلب عاصمة الضباب ، دوت رصاصات قوية ..

سيل من الرصاصات ..

* * *

فى اللحظة التى دخل فيها وزير الخارجية المصرى ، إلى بهو قاعة المؤتمر ، تحرك قتلة (الموساد) ..

أشهروا أسلحتهم ..

وانقضوا ..

وفى اللحظة نفسها ، أدرك (أدهم) أنه لا مجال للانتظار ..

أو للرحمة ..

لقد بذل كل ما بذل ؛ ليمنع الإسرائيليين من تنفيذ خطتهم ..

ليحمى الوزير ..

وينقذ أمن (مصر) ..

ومهما كانت العقبات ، فمن المستحيل أن يتوقف الآن ..

من المستحيل تمامًا !..

وهنا ، لم يتردد (أدهم) لحظة واحدة ..

لقد استدار بأقصى سرعته ، وأمسك معصم المفتش (لوبان) بيسراه ، ورفع فوهة مسدسه بعيدًا ، ثم لكمه بكل قوته بيمناه ، ليدفعه نحو مساعده ..

وقبل أن يستوعب أحدهما ما حدث ، وثب (أدهم) ..

وثب من الطابق الثانى ، فى جسارة مدهشة ، ليهبط على رأس اثنين من المستعربين ، قبل أن تنطلق رصاصتهما ..

إنهما الاثنان اللذان كان من المفترض أن يطلقا النار على الوزير مباشرة ..

ولقد فوجئ الجميع بما فعله ..

(إليعازر) ..

والمستعربون الخمسة ..

ورجال الأمن الفرنسيون ..

والمصريون ..

والوزير ..

فوجئوا ، وتحرك رجال أمن الوزير فى سرعة ، فاستلُّوا أسلحتهم ، ولكنهم حارُوا فيمن ينبغى أن يصوبوها إليه ..

أما (أدهم) ، فقد سقط أرضًا مع المستعربين ، وقبل أن ينهض ثلاثتهم ، هوى على فك أحدهما بركلة قوية ، ثم دار يلكم الآخر فى أنفه مباشرة ..

وهنا ، فقد (إليعازر) صوابه ، وصرخ بالعبرية ، دون أن ينتبه :

ـ الوزير .. اقتلوا الوزير !

كان هتافه العبرى كافيًا ليفهم الملحق العسكرى الموقف كله ، فصاح فى رجال أمن السفارة ، المصاحبين للوزير :

ـ الشاب معنا .

فهم الرجال الموقف على الفور ، واندفع أحدهم يحمى الوزير بجسده ، فى حين أطلق الباقون النار على المستعربين ..

ولم ينتظر (إليعازر) ليرى كيف سينتهى الأمر ..

لقد انطلق يعدو ، محاولاً الفرار من المدخل الخلفى ، قبل أن يخسر فرصة الهرب .. كان يشعر بغضب ومرارة ، لا حصر لهما ، وهو يعدو ، ودوى الرصاصات فى القاعة ، يتناهى إلى مسامعه ..

لقد خسر مهمته ..

خسر المواجهة كلها ، على الرغم من كل التخطيط والإعداد والدراسة ..

خسرها بسبب صبى ..

صبى مصرى ..

وبكل حنق الدنيا ، هتف فى أعماقه :

ـ سيدفع الثمن .. أقسم أن أجعله يدفع الثمن !

حتى قبل أن يكتمل الهتاف فى أعماقه ، وثب (أدهم) بدفعه من الخلف ، وهو يقول بعبرية سليمة ، ولهجة صارمة :

ـ إلى أين ؟!

فقد (إليعازر) توازنه ، مع قوة الدفعة ، فسقط أرضًا ، وهو يطلق سبابًا ساخطًا ، ثم استدار فى سرعة ، ليواجه (أدهم) ، وهو ينتزع مسدسه من غمده ، صارخًا :

ـ أنت مرة أخرى ؟!

أمسك (أدهم) الشاب معصمه ، وهو يقول :

ـ هل يزعجك وجودى ؟!

هوى (إليعازر) بقبضته على فكه ، بكل ما يملك من قوة وغضب ، صائحًا :

ـ بل يزعجنى وجودك على قيد الحياة !

كانت اللكمة من القوة ، حتى إنها ألقت (أدهم) بعيدًا ، وعندما وثب محاولاً استعادة توازنه ، وجد مسدس (إليعازر) مصوبًا إلى رأسه ، وهذا الأخير يصرخ فى غضب هادر :

ـ لذا ؛ فسأزيحك خارج هذه الحياة .

وفى لحظة واحدة ، وثب (أدهم) نحوه ..

وانطلق دوى النار ...

وفى بهو المقر ، التقطت أذنا الملحق العسكرى دوى الرصاصة ، فهتف :

ـ يا إلهى !.. (أدهم) !

كان هو ورجاله ، مع رجال الأمن الفرنسيين ، قد سيطروا تمامًا على الموقف ، مع إصابة بعضهم بإصابات طفيفة ..

ولكنهم قتلوا ثلاثة من المستعربين ..

وألقوا القبض على اثنين ..

ونجا الوزير ..

وفشلت المحاولة ..

وكان الملحق العسكرى يشعر بمنتهى الفخر ؛ لأن (أدهم) ابن (صبرى) ، هو الذى حسم الموقف ..

وأنقذ الوزير ..

لذا ؛ فقد هاله أن يسمع دوى الرصاصة ، التى ربما تعنى مصرع (أدهم) ، فانطلق يعدو نحو مصدرها ، وقلبه يخفق فى عنف ..

وعندما وصل إلى منطقة الصراع ، بين (أدهم) و(إليعازر) ، اتسعت عيناه عن آخرهما فى دهشة بالغة ..

لقد وجد (إليعازر) ملقًى أرضًا على وجهه ، و(أدهم) يجثم فوق ظهره ، ويلوى ذراعه اليسرى خلفه ، بقبضة قوية ، على الرغم من صغر سنه ، فى حين يلصق مسدس الإسرائيلى بمؤخرة عنقه ، و(إليعازر) يصرخ فى مقت :

ـ لن تفلت منى أيها الصبى .. سأقتلك .. سأقتلك ، حتى لو كان هذا آخر ما أفعله فى حياتى !

كان ذراع (أدهم) يدمَى ، مع تمزق واضح فى سترة الشرطة التى يرتديها ، فصوَّب الملحق العسكرى مسدسه إلى رأس (إليعازر) ، قائلاً فى صرامة :

ـ هذا لو بقيت حيًا ، عندما تخرج من السجن .

وصل رجال الأمن إلى المكان ، وأمسكوا (إليعازر) ، وأحاطوا معصميه بالأغلال ، وهو ما زال يصرخ :

ـ من أين أتى هذا الصبى ؟!.. من أين ؟!

ربَت الملحق العسكرى على كتف (أدهم) ، بينما كانوا يقتادون (إليعازر) إلى الخارج ، وابتسم قائلاً :

ـ من أفضل مكان فى الدنيا .. من (مصر) !

لم يكد يتم عبارته ، حتى اندفع المفتش (لوبان) إلى المكان ، وصاح فى انفعال ، وهو يصوِّب مسدسه إلى (أدهم) :

ـ إننى ألقى القبض على هذا الشاب .. الآن !

وتوتر الموقف مرة أخرى .

* * *

15ـ الختـــــام ..

علت أبواق سيارة الإسعاف ، فى العاصمة البريطانية (لندن) ، وهى تنطلق نحو المستشفى الرئيسى هناك ، وبداخلها (صبرى) ، المصاب بعدة رصاصات ، والذى تنزف منه الدماء فى غزارة ، و(حسن) ، الذى يرافقه ، والذى بدا شديد الارتياع واللوعة ، وهو يمسك يده الغارقة فى الدم ، قائلاً :

ـ تماسك يا (صبرى) .. تماسك يا صديقى .. من أجل ابنيك .. من أجل (مصر) !

كان يشعر بتأنيب ضمير شديد ؛ لأنه لم يكشف محاولة الاغتيال ..

لم يلحظها ..

أو حتى يتوقَّعها ..

ربما لأن هذا الأمر غير معتاد فى عالم المخابرات ..

رجال المخابرات لا يغتالون بعضهم البعض ..

ليس لأى سبب أخلاقى ، ولكن لأن الانتقام والاغتيال طريق ذو اتجاهين ..

ولو بدأه جهاز ما ، فلن ينتهى أبدًا ..

لن ينتهى ، ولكن عمل المخابرات قد ينتهى ..

فبدلاً من أن يمارس رجال المخابرات مهامهم الرئيسية ، سينشغلون فى تخطيط وتنفيذ عمليات الاغتيال ، والاغتيال المضاد ، والثأر ، وغيرها ..

عندئذ لن يصبحوا رجال مخابرات .. بل رجال عصابات ..

لهذا لم يتوقَّع (حسن) ما حدث أبدًا ..

لقد كان يراجع بعض المعلومات ، مع سكرتير السفارة ، عندما فوجئ بدوى سيل من الرصاصات ، فاندفع إلى الخارج بأقصى سرعته ، ورأى المشهد البشع ..

رأى (صبرى) ملقى أرضًا ، والدماء تنزف من مواضع شتى فى جسده ، وسيارتان تنطلقان مبتعدتين ، مع ستة من الرجال على الأقل ..

وبينما راح رجال أمن السفارة يطلقون نيرانهم ، خلف السيارتين ، أسرع هو يفحص (صبرى) ، الذى نطق كلمة واحدة :

ـ الوثائق يا (حسن) !

أمسك يده ، مضيفًا :

ـ اطمئن .

عندئذ سقط جفناه على عينيه ، وتضاعف نزيف الدماء ..

ويا له من موقف رهيب ، لا يمكن أن ينساه أبدًا !..

وداخل سيارة الإسعاف ، شعر بيأس شديد ..

ثقوب الرصاصات ، فى جسد (صبرى) ، توحى بأنه من المستحيل أن ينجو ...

صحيح أن المسعف يحاول تعويض بعض الدماء التى فقدها ..

ولكن هذا يبدو أشبه بمحاولة يائسة ..

ويبدو أن (صبرى) كان محقًّا فى مخاوفه ..

وربما لن يرى (أدهم) ثانية ..

أبدًا ..

* * *

كان المفتش (لوبان) يشعر بغضب شديد ، مما فعله (أدهم) به وبمساعده ، وكان مصرًا على إلقاء القبض عليه ، مهما كانت الأسباب ..

لهذا ؛ كان يصوِّب مسدسه إليه فى تحفُّز ، وينتظر حركة واحدة منه ، ليطلق النار على رأسه مباشرة .

ولكن فجأة ، قال الملحق العسكرى فى صرامة :

ـ لا يمكنك إلقاء القبض عليه .

عقد (لوبان) حاجبيه ، وقال فى حدة :

ـ لا أحد يمكنه أن يحول بينى وبين هذا .

قال الملحق العسكرى :

ـ بل يوجد ما سيحول بينكما .

ثم أخرج جواز سفر أحمر من جيبه ، وهو يضيف :

ـ هذا .

شعر (لوبان) بتوتر شديد ، وهو يتطلَّع إلى جواز السفر ، قبل أن يقول فى عصبية :

ـ وما هذا ؟!

أجابه الملحق العسكرى :

ـ كما ترى تمامًا .. جواز سفر دبلوماسى .. هذا الشاب واحد منا ..

ردد (لوبان) ، فى عصبية شديدة :

ـ واحد منكم ؟!

لم يفهم (أدهم) نفسه ما يعنيه هذا ، ولكن الملحق العسكرى بدا شديد الحزم ، وهو يجيب :

ـ يمكنك أن تقول : إنه سلاحنا السرى .

بدا الغضب الشديد على وجه (لوبان) ، وهو يقول :

ـ ما حدث هنا ليس هينًا ، وأنا واثق من أن وزير خارجيتنا ، يمكن أن يصدر تصريحًا بالتعامل مع الموقف ، حتى لو كان هذا الشاب يحمل جواز سفر دبلوماسيًا .

قال الملحق العسكرى فى صرامة :

ـ فليكن .. حتى يصدر ذلك التصريح ، لا يحق لك إلقاء القبض عليه .

رمق (لوبان) (أدهم) بنظرة شديدة الغضب ، وخفض فوهة مسدسه ، قائلاً :

ـ أؤكد لكم أن هذا لن يستغرق طويلاً .

أجابه الملحق العسكرى بنفس الصرامة :

ـ فليكن .

ولكنه لم يكد ينصرف مع مساعده ، حتى اتجه الملحق العسكرى إلى (أدهم) ، وناوله جواز السفر الدبلوماسى ، قائلاً :

ـ السيد الوزير ، مدير المخابرات ، أمر باستخراج هذا الجواز لك ، فى حالة ما إذا احتجنا إليه .

سأله (أدهم) فى حذر :

ـ هل كنتم تعلمون ؟!

أجابه الرجل :

ـ والدك أخبرنا ، وطلب منا أن نساعدك على الخروج من أزمتك .. بدل هذه الثياب بسرعة ، فستحملك واحدة من سياراتنا إلى المطار ، وستجد حجزًا باسمك إلى (القاهرة) ، فى أول طائرة تغادر .

غمغم (أدهم) :

ـ أفضل أن يكونا مقعدين .

بدت الدهشة على وجه الملحق العسكرى لحظة ، ثم لم يلبث أن قال فى حزم :

ـ لا بأس .. المهم أن تسرع .

ثم اعتدل ، وابتسم مضيفًا :

ـ وسنبلغ والدك فور سفرك ، أن كل شيء على ما يرام .

تمتم (أدهم) :

ـ أتعشّم هذا ..

نعم ..

كل ما عليك هو أن تتعشّم هذا ..

فقط ..

* * *

« قل لى .. هل يقدّمون طعامًا دسمًا هنا ؟ »

ألقى (قدرى) السؤال على (أدهم) فى اهتمام ، فانتزع هذا الأخير من شروده ليقول معتدلاً :

ـ لست أدرى .. فأنا لا أتناول الطعام على متن الطائرات ، فى المعتاد .

ارتفع حاجبا (قدرى) فى دهشة ، هاتفًا :

ـ لا تتناوله ؟!

أومأ (أدهم) برأسه ، قائلاً :

ـ أبدًا .

أطلق قدرى ضحكته المجلجلة المرحة ، التى أدهشت ركاب الطائرة ، قبل أن يقول :

ـ لست أدرى ، كيف يجد المرء فرصة لتناول الطعام ، ثم لا يفعل !

ابتسم (أدهم) فى رصانة ، فالتفت إليه (قدرى) ، متسائلاً :

ـ ما الذى يقلقك ؟ عودتك إلى (مصر) ؟

سأله (أدهم) ، وهو يحاول الابتسام :

ـ هل تقلقك أنت ؟

لوّح (قدرى) بيده ، قائلاً :

ـ بل على العكس .. إنها تسعدنى تمامًا ، فقد سئمت التخفّى هناك ، فى (موسكو) ، وأتوق إلى العيش فى النور ، فى وطنى الأم .

غمغم (أدهم) :

ـ شعور طيب .

تطلّع إليه (قدرى) لحظة ، ثم عاد يسأله :

ـ حقًا .. ماذا يقلقك ؟!

تردَّد (أدهم) لحظة ، قبل أن يجيب هامسًا :

ـ لست أدرى كيف سيكون رد فعل والدى ، بعد أن علم أننى قد تورطت مع (الموساد) ..

هزّ (قدرى) كتفيه المكتظتين ، وهو يقول :

ـ لست أظنه يغضب .. لقد انتصرتَ عليهم .

تنهّد (أدهم) ، قائلاً :

ـ أنت لا تعرف والدى .

ابتسم (قدرى) ، وقال :

ـ بل أعرفه جيدًا .. لا تنس أنه من كشف قدراتك ، وساعدنى على تنميتها .

تمتم (أدهم) :

ـ لم أنس هذا .

كان ينطق عبارته ، وهو يشعر بقلق عجيب ، يتسلَّل إلى كيانه كله ..

قلق مُبهَم ..

غامض ..

ومخيف ..

وبينما يحاول معرفة سبب هذا الشعور العجيب ، ربَّت (قدرى) على يده ، وقال وهو يسترخى فى مقعده :

ـ اهدأ يا صديقى .. لقد انتهى الأمر .

لم يدر أحدهما لحظتها أن الذى انتهى ، هو حياة (صبرى) ، الذى اغتالته يد إسرائيلية غادرة .. أما حياة (أدهم) ، فقد كانت تكتب بداية عالمه المثير ..

البداية الحقيقية .

* * *

(تمت بحمد الله)

رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية
للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

د. نبيل فاروق

البداية

يبدأ الأمر كله بفكرة ..

ثم كان الإعداد .. والتنفيذ ..

ومنذ طفولته ، بدأ تدريب أدهم ، للهدف الذى ولد من أجله ..

لأول مرة ، يخرج أدهم الشاب فى رحلة ميدانية جديدة ..

وفى موسكو وباريس كانت أرض الصراع ..

وكمغناطيس بشرى ، جذب أدهم الشاب إليه المتاعب ، منذ اللحظة الأولى ..

وعلى الرغم من صغر سنه ، وعدم تمتعه بأية صفة رسمية ، قاتل أدهم الشاب ، وربما لأول مرة فى حياته ، من أجل مصر ، وخاض جولات عنيفة قاتلة ..

ولكنها كانت البداية ..

الحقيقية ..

16

• اقرأ التفاصيل المثيرة ، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل ... رجل المستحيل .

الثمن فى مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة